طوفان الأقصى
سياقات ومآلات

بقلم:
أحمد أبو صهيب

الطبعة الأولى

صورة الغلاف: لقد حرصت أن تكون صورة الغلاف، متضمنة لصورة الشهيد التي لطالما لازمتني على حســـاب التواصـــل الاجتماعي الخاص بي "فيس بوك".

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ذرأنا في الأرض واستخلفنا فيها لنعمرها بإقامة الحق وخدمة الخلق، والصلاة والسلام على نبينا المجاهد، الذي قاد أقدس مشروع أخلاقي عرفته الدنيا، لتحرير الناس من الناس وإفراد تبعياتهم لرب الناس، فطُرد من بيته وحرم من وطنه، وخاض جولاتٍ مستمرةٍ ومضنيةٍ من الصراع، ذاق فيها مع أصحابه ورجال مشروعه النبوي؛ النصر في بدر والهزيمة في أحد والحصار في الشعب، وزاغت أبصار أصحابه خوفاً في الخندق، وفقد خيرة رجاله في أحد ومؤتة، وأوجعه المشركين في الرجيع ومعونة غدراً، وأرهقه المنافقون في المدينة إرجافاً، لكنه استمر في مسيرته وواصل في سعيه حتى أتم الله له الأمر، آخذاً بأسبابه متكلا على معية الله وتوفيقه، وبعد..

لقد حدث هجوم السابع من أكتوبر ثم تلته هجمة عسكرية غاشمة ضد القطاع، لينفتح جدل داخلي وتساؤلات حتى لدى أنصار المقاومة حول صوابية القرار من خطئه، وإن أغلب هذه الأسئلة وغيرها في الحقيقة هي وليدة الألم والمعاناة الوحشية التي فرضها الاحتلال على سكان القطاع، وليست أسئلة موضوعية في سياق طبيعي خارج مجال كي الوعي الرهيب الذي مارسته آلة البطش الصهيونية.

وليس هذا الكتاب للدخول في الجدل نقداً أو تبريراً، وإنما هو لوضع بعض الاضاءات على استراتيجية الصراع بشكل عام، والحفاظ على الوعي الجمعي بما يتعلق بمشروعنا التحرري المتعب والطويل.

إن هذا الكتاب هو محاولة لتفكيك الأحداث، والنظر إليها بعقلانية وموضوعية، وفق المبادئ الحاكمة لمشـــروع التحرر الوطني، لأن أي تعامل مع القضـــية الفلســطينية وأحداثها بعيداً عن اعتبارها مشـروع تحررٍ وطني، سـيأخذنا دائماً إلى مواقف مغلوطة واستنتاجات مشوهة.

إن هـذه المعركـة من بين كـل المعـارك، تتجلى فيهـا الحرب على الوعي الفلسـطيني، والإيمان بالقضـية، لم يكن ذلك هدفاً هامشـياً أو أثراً جانبياً لسـير المعركة، بل كان جزءً رئيسـا من أهداف المعركة الاسـتراتيجية بالنسـبة للعدو، وهذا يتطلب وعياً مقابلاً، وهو الهدف من إصدار هذا الكتاب.

إنني لا أكتب منفصـــماً عن المشـــهد أو متابعاً من بعيد، بل أكتب من قلب المعاناة التي نتشـــاركها جميعاً في غزة، ونعايش جميع تفاصـــيلها الشـــاقة والمضنية، لكني أصر أن يبقى التفكير منطلقاً من الوعي لا معبراً عن الألم.

وإنني لطالما ذكرت، أن واجب أهل الرأي والفكر ومقتضـى أمانتهم، أن يوجهوا الجماهير إلى ما يسـتقر في ضـميرهم أنه الصـواب، لا أن يسـايروا رغبات الجماهير ويزينوا أهواءهم طمعاً في رضا القارئ أو ثناء المتابع.

وإنني أنصـح القارئ الكريم أن يقرأ الكتاب كاملاً، قبل يتخذ موقفاً أو رأياً حول الكتاب أو الأحداث التي يناقشها.

أحمد. أبو صهيب

غزة ٢٠٢٤/١٢/١٤

الفصل الأول:

سياقات الطوفان

فلسفة تجارب التحرر

إن مقاومة المحتل في جوهرها، هي مقاومة القوة البالغة في الضـــعف للقوة البالغة في القوة، رافعةً بذلك كلفة الاحتلال، ويبذل المحتل أقصـى ما يسـتطيع من العنف المتاح للقضـاء على المقاومة أو كبحها، وتواصـل المقاومة احتمالها لردات فعل المحتل المتوالية والمتصـــاعدة، إلى أن يصـــل المحتل يائســاً إلى قناعة ذاتية؛ أنه لا يســتطيع ان يفعل أكثر مما فُعل، وبينما لا تُظهر المقاومة إشارات للتراجع يبدأ مشروع الاحتلال بالتفكك.

إن قيام مقاومةٍ ما برفع تكلفة الاحتلال، لا تعني رفع التكلفة على طرف واحد وهو الاحتلال، هذا مفهوم مغلوط ومخادع تماماً، ومغاير لكل الوقائع التاريخية تقريباً، إن الحقيقة الواقعية أنها ترفع التكلفة على الاحتلال، وترفع التكلفة أضعافاً مضاعفةً على الشعب الواقع تحت الاحتلال.

كل الشعوب التي تحررت، دفعت ثمناً لمقاومة محتلها، أضعاف ما كان يمكن أن تدفعه لو ســلمت له وتعايشــت معه، غير أن خســارتها في التعايش أكبر بكثير من خســارتها في المقاومة، لأنها في الحقيقة ســتخســر ما هو أكبر من الدم والألم، إنها تخسر الهوية والمستقبل...!

إن الأجيال التي تقاوم الاحتلال، تموت في أغلبها وهي تدفع الثمن، بينما قلة من الذين يشـهدون الاحتلال ويقاومونه، تمنحهم بقية أعمارهم فرصـةً لمشـاهدة التحرير، وغالباً ما يدفعون هذه البقية في ترميم ما أفســد الاحتلال، أو مقاومة مخلفاته العلنية والخفية.

إن المقاومة عمليةٌ لا يخوضـها جيل من أجل أن يحصـد هو المكاسـب، إنها عمليةُ تضـحيةِ جيلٍ او عدة أجيال، من أجل أن يكسـب جيلٌ جديد، أما جيل الثورة فيكفيه أنه كسـب كرامته التاريخية، وأدى أمانته الوطنية، ولم يسـاهم بالخنوع لطمس هوية أبنائه وتضييع مستقبل أحفاده.

إنه نوع من ظلم عجلة التاريخ وإغراقها بالحظ العاثر لجيل أبصـر النور تحت ظلمة الاحتلال دون إرادة منه ولا رغبة، لكنها جوهر السـلوك الإنسـاني العابر للأعراق والضارب في جذور التاريخ، حيث يقدم الأجداد للأسلاف ويقود الآباء معركتهم نيابةً عن أبنائهم.

هذا المنظور المادي المجرد، لم يترك عذراً لشـعب لا يقاوم، حتى لو كان بلا دين أو عقيدة، فكيف بمن تتمحور عقيدته أن حياته الدنيا ليست سوى اختبار صـغير لحياة حقيقية أخرى، تبدو الأولى بالنسـبة لها مجرد غمضـة عين، ولا تزيدها المعاناة في الأولى سوى سعة في الأخرى ليست تنتهي.

هذه الفلسفة المجردة للاحتلال ومقاومته، خاضتها شعوب الله في الأرض عبر التاريخ، ولا تكاد تجد تجربة لشـعب تأفف من دفع ثمن الحرية؛ إلا اندثرت هويته، أو تأجلت معركته للأجيال التالية حين لا تتماشـى جيناتها الإنسـانية والثقافية والعرقية مع جينات الوافد الغريب الذي يريد أن يكون أصـيلا، وحينها تدفع الأجيال اللاحقة بالضبط والتمام إن لم يكن أكثر، ما كان ينبغي أن تدفعه الأجيال الأولى في ثورة تحررها، فيما لم تحصـد أجيال التعايش مع الاحتلال سوى سنوات من الذل والتيه مع خزي التاريخ الذي لا ينمحي.

وثمة نموذج لنصف مقاومة أو نصف ثورة، يخوض فيها الشعب ثورة ضد الاحتلال، فتُؤلمه عصاه، ثم يُلَوِّح الاحتلال له بالجزرة فيلتقطها كطوق نجاة، ثم يكتشف أن لا نجاة في هذه الجزرة، فيثور من جديد، وتتجدد العصا وتتنوع الجزرات، وهكذا دواليك، حتى يدفع ثمناً متراكماً ومجزئا بالقطارة، ضعف أو أضعاف، ما كان ينبغي أن يدفعه لو خاض ثورة واحدة كاملة بلا أنصاف.

إن التردد في دفع الثمن، أو دفع جزء منه، ثم التراجع تحت وطأة الألم، لن يقلص الثمن الكلي للتحرر، بل يضاعفه، ويضاعف معه عمر الاحتلال، وكذلك العمر المهدر من أعمار الشعوب المحتلة.

ولا بد ألا نغفل عن الحقيقة الإنسانية بهذا الخصوص، إن مقاومة المحتل ليست قراراً تختاره فئة من شعب محتل، بل هي بكل بساطة؛ واجب على الجميع أن يؤديه، وإن من لا يقاوم المحتل لا يصنف محايداً أو حكيماً؛ بل هو خائن أو جبان، وإن الوعي الممسوخ في حدوده القصوى لا يمكن أن يعتبر التقصير في هذا الواجب الوطني نوع من الحكمة أو شيء من الكياسة...!

استراتيجية العدو قبل الطوفان

قبل الطوفان، كان يواجه العدو ثلاثة اعداء رئيسيين يشكلون تحديات متفاوتة للعدو، الخطر الوجودي القادم من إيران، والتهديد المخيف القادم من لبنان، والإزعاج المزمن الواقع في غزة، ولم يكن العدو في عجلة من أمره للتعامل مع هذه التحديات، لكنه كان دائماً في حالة تجهز واستعداد، حتى أن معظم تدريباته في السنوات القريبة قبل الطوفان، كانت تتمحور حول الحرب متعددة

الجبهات، ونفذ عدداً كبيراً من المناورات في الفترة الأخيرة، لمحاكاة حرب متزامنة على جبهات ثلاث.

كان العدو يتعامل مع غزة كصداع مزمن من حيث التأثير، لكنه يحتاج عملية جراحية كبرى من حيث القدرة على العلاج، وكانت سياسة العدو أن يكتفي بتناول المسكنات الأقل ثمناً، ويتعايش مع هذا الصداع إلى حين تأتي الظروف المواتية للدخول في عملية جراحية كبرى، لقد كان العدو يعرف أن تكلفة التخلص من غزة بالحرب البرية ستكون مكلفةً ومعقدةً جداً، ولهذا اكتفى باحتواء غزة والعمل على تقليل خطرها.

احتوى غزة بترك هامش حياة لها، ومنحها بعض الفتات لتخشى عليه، فتحد من ثورانها وتقلل من مرات انفعالها، وكانت كل المؤشرات لديه توحي أن غزة تسير في هذا السياق وفق الخط المرسوم.

أما تقليل الخطر، فكان عماده الأساسي يتمثل في المشروع الاستراتيجي الهائل والكبير، في بناء الجدار الحدودي والمانع الأسطوري على حدود القطاع، لكشف الأنفاق الهجومية وإزالة تهديدها، حيث كانت تمثل أكبر وأهم وأخطر سلاح تملكه المقاومة، ولقد حقق في ذلك نجاحات مذهلة في الحقيقة، وكان أبرزها إفشاله لعمليتي تسلل عبر الانفاق في معركة سيف القدس، حيث استطاع كشف عملية العبور من خلال المجسات، واستهدف المكان بطائراته الحربية، واستشهد جميع المنفذين في العمليتين المنفصلتين في مكانين مختلفين.

مع تحييد سلاح الأنفاق الهجومية، عمد إلى تحييد أسلحة القتال الهجومية النوعية الأخرى، فعزز دفاعاته البحرية وزاد تعقيدات أي عمل يمكن تنفيذه من خلال البحر، كما سارع في تطوير القبة الحديدية وزيادة منصاتها، ولقد حققت نجاحاً كبيراً في معركة سيف القدس، وكانت المقاومة تضطر لرماية ١٠٠ صاروخ بشكل متزامن على تل أبيب من أجل إيصال بضعة صواريخ لإحداث التأثير المطلوب، وهو عدد كبير جداً بالنسبة لما هو متوفر في حوزة المقاومة.

كما كان العدو يحافظ على الدخول مع غزة في مواجهة دورية ضمن سياسة "جز العشب"، بحيث يجبر غزة على استخدام سلاحها مما يعيقها عن مراكمة القوة، وفي نفس الوقت يستغل كل موجة تصعيد في ضرب مقدرات التصنيع لإعاقة الإنتاج وإبقاء قدرات غزة تحت السيطرة ما أمكن.

الأهم من كل هذا، هو تشديد الحصار على موارد التصنيع وطرق التهريب، ولقد قام النظام المصري من خلال حربه على أهل سيناء وعلى الانفاق بدور بارز وفعال في هذا الصدد، وكان هذا مؤثراً جداً على قدرة غزة على التسلح، أو حتى ترميم الفاقد في أي معركة أو تصعيد، وعندما نقول أن غزة كانت تصنع سلاحها من العدم والمستحيل؛ فهو قول حقيقي لا مبالغة فيه.

وفوق هذا كانت تدور معركة يومية وعلى مدار الساعة، معركة شرسة جداً وخفية جداً، ألا وهي معركة الاستخبارات، ولقد كان العدو يوجه ضربات بالجملة تحت الحزام، وكانت المقاومة تواجه ذلك بجهد جنوني، ويقظة لا يمكن معها النوم، لأن أي نجاح صغير يحققه العدو، ينسف انجاز سنوات

طويلة وأموال طائلة وجهود شـــاقة، ومع ذلك فقد كان العدو للأســـف يحقق بعض الإنجازات.

هكذا كانت استراتيجية العدو، تمنحه ميزة إبقاء خطر غزة مستقراً، دون الحاجة إلى دخول عملية برية كبرى، وكان يعتبر أن مرور الوقت وتحقيق إنجازات استخبارية أكبر مع توجيه ضربات ايذائية بشكل دوري أكثر، سيمنحه قدرة أكبر على تقليل حجم الخطر والســـيطرة عليه وبالتالي تأجيل الحاجة للدخول في معركة برية كبرى.

استراتيجية غزة قبل الطوفان

غزة منذ ســـنوات طويلة وهي تعافر الحصـــار المطبق عليها أولاً، وفي نفس الوقت تحاول أن تخلق لها دوراً مؤثراً في مشـــروع التحرر الوطني وثوابته المتعلقة بالأرض والقدس والأسرى، بحيث لا تبقى القضية معطلة فيما ينجز العدو مخططاته على الأرض، خصوصاً في الضفة والقدس، ويغير الوقائع بشكل متسارع، لقد كانت غزة تحمل مشروعاً حقيقياً وصادقاً، وتحاول بكل جهد لتحقيق انجاز لصالح القضية.

ولقد جربت في ذلك حلولاً وطرقاً كثيرة ما بين المرونة الســـياســـية والمواجهة العسكرية، وفي كل المرات كانت تصطدم في صخرة تعيدها إلى نقطة البداية، لقد ذاقت طعم النجاح في ٢٠١٢ زمن حكم الثورة المصـــرية، وزادت يقيناً أنه يمكنها إحداث تأثير في العدو، وحاولت بجهد أكبر في ٢٠١٤ غير أنها اصطدمت بحائط الصد الإقليمي المعادي لها إن لم يكن متواطئاً مع عدوها.

أصبحت الاستراتيجية العامة بعد ٢٠١٤، عدم الدخول في معركة كبرى مع الاحتلال؛ إلا إذا كانت المعركة ستحقق تفوقاً ملموساً يمكن من تحقيق انجاز في ملف الحصار وملف من ملفات الثوابت الوطنية، وخصوصاً الأسرى والقدس، ومنذ ذلك الحين وهي تراكم القوة، وتدخل في مناوشات اضطرارية صغيرة مع العدو، ثم تعيد ترميم ما فقدت وتكمل المراكمة في نقص شديد جداً في الإمكانات والموارد.

جاءت معركة سيف القدس في ظل مراكمة جيدة للقوة، وكانت استجابة لاثنين من الثوابت الوطنية الكبرى، الأول هو القدس، والثاني هو الأسرى، وفعلياً كان ملف الأسرى هو جوهر المعركة، لولا أن المهمة المتعلقة بهذا الملف لم يكتب لها النجاح، حيث فشل هجومين يهدفان للإغارة على مواقع للعدو وتحقيق أسر في جنود العدو، مما يمكن المقاومة من ورقة ضغط جديدة على العدو في ملف الحصار وملف الأسرى، لكن للأسف تمكنت منظومة الجدار الأرضي من احباط الهجوم، ووضعت المقاومة في تحدي إيجاد البديل لسلاح الأنفاق الاستراتيجي.

جاءت فكرة مسيرات العودة في وقت دقيق وحساس ومناسب، أمكنت المقاومة من امتلاك وسائل إزعاج للعدو تمكنها من الضغط عليه في ملف الحصار، دون استنزاف قوتها العسكرية في صدامات دورية مع العدو تحتاج بعدها إلى فترات طويلة لترميم المفقود فيها، والأهم أنها وبالصدفة البحتة، أوجدت البديل الاستراتيجي لسلاح الأنفاق.

خلال مسيرات العودة، بدأت تتبين نقاط الضعف في موانع العدو على الحدود، ومع نجاح عدد من الشبان في اجتياز الحدود والوصول إلى الطرق الرئيسة للمستوطنات، بدأت تتبلور لدى المقاومة خطة جديدة للهجوم، وتعمقت في دراسة الثغرات عن قرب على مدار فترة مسيرات العودة، وتبين أن الهجوم ليس شرطاً أن يكون عبر الانفاق القليلة المتاحة، بل عبر استهداف واسع ومباغت لجميع مناطق الوهَن، مما يعطي فرصة لبعض الثغرات أن تحقق النجاح المطلوب، ولقد استغلت بعض أحداث مسيرات العودة، لإزالة بعض العوائق أو تخريبها أو التأثير عليها.

إن عيب هذه الخطة أنها قابلة للتطبيق مرة واحدة فقط، لأن العدو دائماً ما يستخلص الدروس والعبر بعد أي حدث مهما كان صغيراً، ويعيد ترميم وتطوير موانعه الدفاعية بما يتناسب مع الحدث، حتى أن المقاومة في تلك الفترة عانت من بعض العمليات الفردية التي كانت تلقى استحساناً جماهيراً وكانوا يُطْلِقون عليها عمليات الذئاب المنفردة، لأن كل عملية هي نتاج ادراك المنفذ لثغرة في السياج، وبدل من استفادة المقاومة منها ضمن هجوم متكامل، يتم تنبيه العدو لها ولمثيلاتها على طول الحد الفاصل، فيقوم بترميمها وزيادة تحصينها وبالتالي حرمان المقاومة من الفرصة وتحويلها إلى تهديد.

لقد تبلورت خطة فائقة في البساطة والتعقيد في نفس الوقت، وبدأ التجهيز وتسخير السلاح بما يخدمها، ورفضت المقاومة أن تنجر إلى أي معركة جانبية أو استفزاز من العدو، لأن الخطة بحاجة إلى كل طلقة وكل صاروخ أن يوظف في موضعه المناسب من خطة الهجوم وكذلك من خطة الدفاع.

لقد كان نجاح خطة الهجوم هو الفرصة الذهبية وتقريباً الوحيدة المتاحة، التي تنتظرها المقاومة منذ سنوات لإحداث نقلة في الصراع مع العدو، وهذا كان يتطلب سرية فائقة جداً في الإعداد، وقدرة على التنفيذ قبل انكشاف نية المقاومة من قبل العدو، وبالتالي أخذ الاحتياط، أو تغيير شكل العوائق والموانع على الحدود مع غزة أو زيادة تحصينها.

لقد كانت المقاومة ترغب في تحقيق هجوم قوي ومؤثر على العدو، يمكنها من إجبار العدو على تقديم تنازلات جوهرية في ملف الأسرى وملف الحصار وملفات أخرى، وكان المُتوقع؛ أن تكون ردة فعل قاسية من العدو، لكن كان التوقع كذلك؛ أننا قادرون على احتمال ردة الفعل القاسية مقارنة بالنتائج المرجوة من الهجوم.

كانت الاستراتيجية العامة وفق المعطيات والتصريحات، شن هجوم واسع على مواقع العدو المحاذية للقطاع، لشل دفاعات العدو، واشغالها بنفسها، ومنعها من تقديم الاسناد المتبادل فيما بينها، وبالتالي ارتفاع فرصة نجاح الهجوم في مجموعة محدودة جداً من المواقع، حيث كان المتوقع فشل الهجوم على العدد الأكبر من المواقع المستهدفة، فيما تحقق الهجمات الناجحة القدر المطلوب من أجل تحقيق الهدف الاستراتيجي للمقاومة وفرض معادلات جديدة للصراع.

أما الذي حصل، فكان خارج كل الحسابات، لا من حيث النجاح الباهر للهجوم، ولا من حيث ردة الفعل المعادي، ولله في تدابيره حِكم.

الأسئلة الجوهرية.

لقد حدث الطوفان، ومما لا شـــك فيه أن هجوم الســـابع من أكتوبر كعمل عسـكري وثوري، هو أبرع هجوم عسـكري معقد في العصـر الحديث، وسـواءً اتفقنا او اختلفنا فإنه سيسـجل ضـمن مجموعة من أبرع الخطط العسكرية في التاريخ، وسيبقى محط فخر واعتزاز للمقاتل الفلسطيني، الذي صـنع من العدم والمستحيل تحت الحصـار المطبق من كل جهات الدنيا، أنجح عبور عسكري ضد عدو تسخر له كل الإمكانيات المادية والتكنلوجية من كل جهات الدنيا.

ثم تبعه العدوان، ومما لا شك فيه أيضـاً، أنه أعتى عدوان وحشـي وبربري مر على أي من شـعوب المنطقة، في ظل حصـار مطلق وصـمت مطبق، ويد مطلقة للعدو بلا حسـيب أو رقيب، ولقد دفع الشـعب الفلسـطيني أثماناً لا نسـتطيع أن نقول باهظة أو فادحة، لأن ما حصـل في الحقيقية لا تسـتطيع مفردة من كل قاموس اللغة أن تكون وافية بتوصيفه.

ونتيجة لهذا العدوان الهمجي المهول، الذي كان جزءً من صـــميم أهداف وحشـيته الدموية، إحداث أكبر صـدمة في الوعي الفلسـطيني، وإيقاع أقصـى هزيمة نفسـية ممكنة، ثارت تسـاؤلات عديدة وسـجالات جمة، من خصـوم المقاومة ومن أنصـارها بل وحتى كثيراً من عناصـرها، بعضـها موضـوعي وبعضها مفتعل، وكثير منها تنفيس اوجاع تحت وطأة القتل والمعاناة.

وفي ظني، أنه من بين كل الأســئلة المطروحة، ثمة ثلاث أســئلة جوهرية وأسـاسـية، السـؤال الأول هو هل كان ينبغي تأجيل الهجوم إلى أن نكون أكثر

قوة؟، أما السؤال الثاني فهل كان الأفضل تصغير الهجوم ليكون صغيراً ومحدوداً بحيث لا يستجلب رد الفعل الحاصل من قبل العدو، والسؤال الثالث هل قدم الهجوم ذريعة لوحشية الاحتلال.

تأجيل الهجوم

لا ينبغي أن يغيب عن وعينا أن جوهر الصراع مع الاحتلال يدور حول الأرض، أعني حول تحرير الأرض كمحصلة نهائية للثورة، وهذا في الواقع المشهود والمجرب، لا ولن يتم بالمعارك الصغيرة وحدها، وشئنا أم أبينا، وكحتمية من الحتميات والمسلمات اليقينية أن تحرير الأرض لن يكون سهلاً وميسوراً، ولن يحصل بمعجزة مفاجئة أو بالضربة القاضية في الجولات الأولى للنزال.

إن تأجيل الهجوم الكبير اليوم، لن يمنع الحتمية التاريخية أنه لا بد أن يكون كبيراً غداً أو بعد غد، وماذا سيفرق الثمن المدفوع اليوم عن الثمن المدفوع غداً؟، إلا المدة الزمنية المضافة إلى عمر الاحتلال، حتى نصل إلى نفس المحطة التي وصلنا إليها اليوم ويراد لنا أن نصلها غداً..!!

ثم ما الذي نراهن عليه من أجل تأجيل الصدام؟

غزة منذ الانسحاب الصهيوني قبل ١٨ سنة، في غرفة تجميد تراوح مكانها في برزخ بين شبه الحياة وشبه الموت، تصارع وتلاكش وتلاطم وتنفجر وتثور وتهدأ وتنزف وتتعافى وتصعد وتهادن، لكن أحببنا أم كرهنا فإن المحصلة الإجمالية في منحنى الصراع " مكانك سر ".

والضفة في منحدر سقوط حاد ومتسارع، سيطرة شكلية للسلطة وفعلية للاحتلال، احتلال كامل لكنه غامض ومقَنَّع، إلى الدرجة التي تطَبَّع الناس مع تقلباته، وتهادنوا مع شراسته، مُخَدَرِين عن ردة الفعل الطبيعية بإزاء تزايد الاستيطان وقضم الأرض وفرض الوقائع المتسارعة في القدس التي هي جوهر الصراع ومحور القضية.

والنظام السياسي الفلسطيني ومفاعيله مجمد لأكثر من عشر سنوات، في ثلاجة الموت المرتقب للرئيس عباس، لتكون أكثر السيناريوهات توقعاً، أن يخلفه أحد صبية الإدارة المدنية للاحتلال، في نظام سياسي مرتقب يزيد عجزاً عن سابقه ولا يقل سوءً...!!

أما على الصعيد العربي والإقليمي، فقد كان النظام العربي يزداد عداوةً للمقاومة، وتفقد المقاومة مناطق النفوذ والدعم الرسمي او الشعبي في مصر والسودان وليبيا واليمن والسعودية وسوريا، بينما تهرول الأنظمة ناحية التطبيع الوقح.

والأخطر أن القضية الفلسطينية أصبحت مستهدفة في الوعي الجمعي للشعوب، وبدأت تُشَنُ هجمات موجهة وممنهجة ومتصاعدة لمهاجمة القضية، واعتبارها قضية فلسطينية للفلسطينيين، ولا يظهر أن هذا التيار في حالة انكفاء، بل واضح أنه كان تياراً متصاعداً، لا شك أنه كان بطيء النمو، لكن المشكلة أنه لم تكن هناك كوابح لصده ولا أدوات فاعلة لمواجهته مستقبلياً، لا

سيما مع ضعف الحركات الإسلامية والتشويه المبالغ لها بعد أحداث الربيع العربي الموءود...!

إن من الواضح أنه ليس من المأمول في عشرين سنة قادمة أن يحدث تغيرً جذرياً يمكن المراهنة عليه، وليس هناك ما يشير أننا سندفع ثمناً أقل لو كان الهجوم بعد ٢٠ او ٣٠ سنة قادمة، ولن يكون ذلك سوى عمرٌ طويلٌ مهدر في تاريخ الشعب والقضية.

موازين القوة

ثمة من يظن أن مراكمة المزيد من القوة خلال عشر أو عشرين سنة قادمة، كان الخيار الأمثل، على أمل توجيه ضربة أكثر قوة وقسوة للاحتلال، قد تمكننا من الفوز بالضربة القاضية، وهو ظن يغلب عليه التمني أكثر من المعرفة الموضوعية الصحيحة بالواقع الحقيقي لموازين القوة، بعيداً عن الشحن العاطفي والاستعراض المُبالَغ للمنجزات.

إن الفجوة في موازين القوة بيننا وبين الاحتلال –لمن لا يعلم–، لم تكن تضيق أبداً، بل كانت على استمرار في حالة اتساع لصالح الاحتلال، وذلك ببساطة لأن الموارد العلمية والتكنلوجية والفنية والاقتصادية وفيرة جداً لصالح الاحتلال، ولا نقول شحيحة لدى المقاومة، بل في الحقيقة كانت قريبة جداً من الصفر...!، ولقد كانت المقاومة حرفياً تصنع المستحيل وتحقق إنجازات كبيرة أشبه ما تكون من العدم، وهذا محل فخر واعتزاز، بل واعجاز، لكن المحصلة النهائية أن الفجوة تتسع، والزمن لم يكن يعمل في صالحنا على الإطلاق.

عندما وصلت المقاومة إلى صناعة صواريخ قوية ومؤثرة خلال ٢٠ سنة من التطوير، كان العدو يتقدم بسرعة أكبر في مجال القبة الحديدة، ولك أن تتخيل لو كانت سرعتنا في التطور أوصلتنا لهذه الصواريخ قبل أن يصل العدو بهذه القبة إلى هذا المستوى من القدرة على التصدي؟!!، وبينما كنا نحاول الهروب من خلال الرشقات الكبيرة لتضليل القبة ورفع تكلفتها المادية، كان الاحتلال قد بدأ في تطوير منظومة الليزر والتي لا ندري كم يحتاج لإنجازها لتصبح لديه منظومة دفاعٍ جويٍ تافهة التكلفة، قادرة على التصدي لصواريخ المقاومة بنجاعة، حيث سيتمكن من نشر بطارياتها بأضعافٍ مضاعفة لمنظومة القبة الحديدية، وعندها سيكون التساؤل ماذا لو كانت الظروف تسمح باستخدام صواريخنا قبل تطوير هذه المنظومة وليس بعدها..؟!!

لقد كنا نحتاج سنوات لتطوير قدرة ما في الجو أو البحر، بينما يتمكن العدو من تطوير الدفاعات التي تحد من تأثيرها في سنة او اثنتين، وقس على ذلك في كل المجالات لا سيما مجال الاستخبارات والتنصت والقدرة على كشف اسرار المقاومة وأماكن مقدراتها ومن بينها الأنفاق.

إن الصواريخ التي امتلكتها المقاومة كان يمكن أن تصبح فجأة بلا قيمة، إذا حدثت طفرة تكنلوجية تمكن العدو من مسح طبقات الأرض السطحية، وتمييز أماكنها، ولقد كانت هناك معطيات كثيرة تدل على سعي العدو في هذا المجال.

وقس على ذلك، لو حدثت طفرة تكنلوجية ما في كشـــف الأنفاق أو منظومات الاتصـــالات وغيرها من المنظومات والمقدرات التي كانت تطورها المقاومة في سنوات طويلة جداً وبموارد محدودةٍ جداً جداً، بينما يتصدى لها العدو بترسانة من التكنلوجيا والموارد المتاحة بشكل غير محدود.

إن خطة العبور الأسطورية التي حدثت في السابع من أكتوبر، كان يمكن أن تصبح بلا قيمة، إذا ما أضيف مانع هندسي أو صناعي أو مائي، لمنظومة الحدود مع القطاع، نتيجة ثغرة أمنية فهم منها العدو أو اســـتنتج الخطوط العريضة للهجوم.

إن نجاح طائرة كواد بالغة الصغر، في زرع جهاز تنصت بالغ في الدقة، في موقع حساس، بالقصد أو بالصدفة، يمكنه أن ينسف موازين القوى، ومن يعرف الحرب الاســـتخبارية اليومية المضـــنية بين المقاومة وعدوها، يعرف كم من المشـــاريع الســـرية انكشـــف غطاؤها، ويعرف أيضـــا كم هو الاعجاز الجدير بالأعجاب، بقاء كثير منها قيد الكتمان.

إن تجربة الجبهة اللبنانية، وما فوجئ به حزب الله من اختراق أجهزة البيجر واللاسلكي، وأماكن تأمين القيادات السياسية والميدانية، هو نموذج لقدرة أي خلل أمني أو تقدم تكنلوجي على إعادة تموضع موازين القوة لصالح العدو مع زيادة سعة الفجوة بشكل أكبر.

إن المحصلة النهائية والإجمالية لسباق القوة في إطار الزمن أن الزمن لم يعمل أبداً في صالحنا ولم يكن الزمن يمنح المقاومة أي اريحية لتأجيل الصدام.

تصغير الهجوم

إن الرواية الرسمية التي تقدمها المقاومة، أنها لم تكن تتوقع نجاح الهجوم بهذا الحجم، وأن الهدف كان أقل بكثير مما تحقق، وأن مفاجأة المقاومة بانهيار فرقة غزة بهذه السهولة لم يكن أقل من مفاجأة الاحتلال بحدوث الهجوم.

ومع ذلك، فماذا لو كان الهجوم مقتصراً على عدة مواقع عسكرية، مع نجاح محدود في خطف ١٠ – ٢٠ جندي، أو حتى هجوم على موقع عسكري واحد لاختطاف ٣ جنود فقط...؟

في البعد الاستراتيجي، ما الذي سيتغير في جوهر الصراع إذن؟، معركة صغيرة جديدة تدفع ثمنها غزة بضراوة، تستهلك جزء كبير من سلاحها وعتادها الذي تحتاج سنوات لإعادة ترميمه بفعل الحصار الثلاثي من الاحتلال ومصر والسلطة، ثم تعود غزة إلى نفس النقطة التي انتهت اليها في جولات ٢٠٠٨و٢٠١٢و٢٠١٤و٢٠٢١، مع تشديد أكثر للحصار وتأزيم أكبر لمشروع المقاومة، والبقاء في محصلة " مكانك سر".

ثم ما الذي يضمن رد فعل العدو أصلاً؟، ومن غير العدو يملك تصنيف الهجوم بالصغير أو الكبير؟، ما هو الضمان الذي يمنع العدو حال تصغيرنا للهجوم من تنفيذ عدوان واسع كما حصل بالضبط والتمام، بذريعة إزاحة حماس عن السلطة واستعادة الثلاثة جنود المختطفين أو حتى الجندي الواحد، ثم تحتشد خلفه كل القوى المتآمرة التي احتشدت له في حرب لبنان ٢٠٠٦ ثم احتشدت خلفه بعد السابع من أكتوبر.

لقد كان هجوم حزب الله في لبنان عام ٢٠٠٦ يصنف على أنه صغير، وكانت ردة الفعل العدو بحرب شعواء على جنوب لبنان وبدعم عالمي، وكان يمكن أن تكون الأمور أكثر سوءً لولا فشل قواتها الذريع في تحقيق انتصار على الأرض التي كانت تضاريسها في خدمة الحزب في ظل عدم جهوزية الاحتلال لمثل هذه المعركة، وحتى السيد حسن نصر الله رحمه الله أعلن أنه لم يكن يتوقع ردة فعل العدو بهذا الحجم وبهذه القسوة.

لقد كانت كل التدريبات الصهيونية في الفترة الأخيرة تقريباً على حرب المدن، وسواء كانت المعركة المرتقبة بمبادرة من العدو أو رد فعل منه، فالمؤشرات توحي أن نية إحداث تغيير جذري لواقع المقاومة في غزة كانت حاضرة وبقوة.

ثم إن كل المؤشرات الاستخبارية للمقاومة، ومؤشرات التصعيد الإعلامي والسياسي للعدو كانت توحي بضربة مفاجئة كبيرة وقاسية قادمة، تستهدف فيها طائرات العدو كافة القيادات العليا للمقاومة، وصولاً إلى القيادات التنفيذية في بعض الملفات المؤثرة، وكانت الضربة السابقة لقادة سرايا القدس نموذجاً مصغراً جداً، لما كان ينتظر القسام رأس حربة المقاومة في غزة.

وعندها ستُفرض على المقاومة معركة رد، يكون قد انتصر فيها العدو مع طلقتها الأولى، ثم قد يتعامل العدو مع رد فعل المقاومة على أنه مبرر لشن هجوم واسع على غزة، وندفع نفس الثمن المدفوع بعد معركة السابع من أكتوبر، لكن دون أن تكون لنا أوراق القوة التفاوضية التي امتلكناها بفعل الهجوم.

إن ورقة الضغط الأقوى التي نمتلكها اليوم، والمكتسب الأساسي الذي يمنحنا هامش التواجد على طاولة التفاوض، هو العدد الكبير من الأسرى في يد المقاومة، وهو نتاج حجم الهجوم الكبير في السابع من أكتوبر، الذي يظن البعض أن تصغيره قد يمنحنا موقفا أفضل...!

ولك أن تتخيل المعركة اليوم، لو لم يكن في يد المقاومة هذا القدر من الأسرى، الذين يمثلون عامل الضغط الأقوى في مفاعيل السياسة الداخلية لدى العدو، وإنك لا تجد أحداً في الصفوف السياسية للعدو يختلف على مبدأ الحرب أو يشتكي من تكلفتها، وإنما الخلاف والتناقض الداخلي السياسي عند العدو يتمحور حول أسرى العدو لدى المقاومة، ووجوب استعادتهم.

إن أكثر ما يمكن الندم عليه في هذه الحالة، ليس أن الهجوم كان كبيراً، بل أن الهجوم لم يكن كبيرا جداً بالحجم الكافي لأسر ٣٥٠٠ أسيرا بدلا من عدد الأسرى الذي يقارب ٢٥٠-٣٥٠ اسير، ولا يمكن لوم المقاومة في ذلك، إلا كنوع من الحكمة بأثر رجعي، لأن المقاومة فعليا وفي أفضل طموحاتها، لم تكن تتوقع نجاح هجومها على ١٠٪ من المواقع التي هاجمتها، ولم يكن التخطيط لهجوم ناجح يؤدي الى أسر عدد ٣٠٠٠ أسير أمراً معقولاً في حينه، قبل أن تظهر الوقائع الميدانية في الطوفان هشاشة هذا العدو أمام بأس المقاتل الفلسطيني.

إن تصغير الهجوم لم يكن سيشكل فارقاً سوى افتقادنا لأكثر أوراقنا أهمية لمساومة العدو على وقف العدوان.

ذريعة التوحش

من الخطأ الظن أن مخطط الهجوم الشامل على القطاع ناتج كرد فعل لأحداث السابع من أكتوبر، الأمور السياسية في صراعنا مع الاحتلال لا تسير على هذا المنحى على الاطلاق.

الاحتلال يتعامل استراتيجياً وفق منطق التكلفة والتهديد، ومخططاته لاحتلال القطاع أو الضفة أو لبنان أو حتى لحرب برية مع مصر أو الأردن أو سوريا، جاهزة ويتم تطويرها سنويا، جوهر الموضوع هو متى يستخدم هذه الخطة ويضيف إليها التحسينات الأخيرة للتنفيذ.

لقد كانت مخططات الهجوم البري على غزة جاهزة، لكنها حبيسة الأدراج، لأن تكلفة الهجوم لا تتساوى مع حجم التهديد، وعندما ارتفع التهديد من غزة عن ثمن التكلفة، خرجت الخطة إلى النور وتم وضع التحسينات النهائية على عجل، ثم تم التنفيذ.

سواءً حدث هجوم السابع او لم يحصل، كانت خطة الاحتلال للهجوم جاهزة، وسواء تحولت غزة من حالة ازعاج إلى حالة تهديد، في أكتوبر ٢٠٢٣ أو ديسمبر ٢٠٥٠، فالخطة أيضا ستكون جاهزة ومتناسبة مع ما تعده المقاومة مع فوارق في موازين القوة ربما لصالحنا وربما لصالح الاحتلال.

الأهم من ذلك، والذي يجب أن نكون متيقنين منه تماماً، أن العدو لم يكن يتجنب المعركة مع غزة بل يؤجلها، بحثا عن زمن مناسب يمتلك فيه تفوقا أمنياً أو تكنولوجياً حاسماً يخفض عليه تكلفة الهجوم وإعادة الاحتلال، لكنه وجد

نفســـه فجأة في قلب المعركة، وقد تقدمت عليه المقاومة خطوة، حرمته من عنصـر المفاجأة وانتزعت منه ورقة ضـغط متعبة، تمثلت في العدد الكبير من الأسرى، وهذه بحد ذاتها كانت ضربةً مربكة لمخطط الاحتلال الاستراتيجي.

ربما يقال أنها منحته في نفس الوقت مبرراً للهجوم، وذريعة للتوحش، لكنني على يقين تام أن هذا العدو لا يحتاج إلى مبرر، وأن هذا العالم لم يكن محتاجاً في دعمه الكيان إلى ذرائع، ولو قرر العدو احتلال غزة كضربة استباقية لتهديد محتمل، لكان سلوكه مشابها، وبالتأكيد كان سيعلن أنها عملية مؤقتة لضمان أمن الكيان، والعالم لديه قدرة عجيبة على تفهم أبناء العم سام، ونموذج الضربة الساحقة للجيش السوري والانتهاك الفاضح للأرض السورية عقب سقوط النظام نموذج بسيط ومصغر لوقاحة الاحتلال واستغنائه عن الذرائع.

إن الوحشـــية المســـتخدمة في الحرب لم تكن عنصـــراً كمالياً، أو مجرد فعل انتقامي، ان الوحشية المستخدمة كانت جزءً من خطة الهجوم المعد مسبقاً قبل الحرب، الوحشية كانت شرطاً لنجاح الخطة وليست استثماراً لها، لم يكن العدو يستطيع أن يصل إلى العمق الذي وصل إليه، وأن يحقق النتائج الميدانية التي كان يريد أن يصـــل إليها، دون هذه القوة المتوحشـــة التي أرهبت الناس، لقد كانت الوحشـــية أمراً ضـــرورياً وفق تقديراته لإفقاد المقاومة منظومة القيادة والسـيطرة، بالقضـاء على كل ما يتاح له من الصـف القيادي، وتفريغ الميدان من المدنيين باعتبارهم عائقاً عملياتياً تســـتدعي مراعاته إطالة أمد المعركة والبطء في حركة القوات ما يجعلها صيداً ثميناً يغرقها في وحل الميدان.

والوحشية المستخدمة في لبنان والاستباحة الكاملة للمدنيين، والتدمير الكلي لعدد من القرى بعد اخلاء أهلها قسراً، لم يكن بالنسبة للعدو رد فعل على هجوم ضخم، بل مجرد احتياج عملياتي لخفض تكلفة الهجوم البري، تماماً كما حدث في غزة.

والمحصلة، أن العدو لو قرر الهجوم على غزة كجزء من مخططاته الاستراتيجية، بدون حدث السابع من أكتوبر، فإن سلوكه الميداني سيكون مطابقاً تماماً للسلوك الذي انتهجه في هذه المعركة، وبالتالي فلم يكن هجوم السابع هو السبب في هذه الوحشية من العدو ولا السكوت المطبق من العالم.

إننا أمام عدو طوال تاريخه لا يحتاج الذرائع بل يصنعها، وبينما يقف خصومه كالحملان الوديعة، مقدمين كل فروض الطاعة، مانحين كل الاثباتات اللازمة على وداعتهم، ومجتهدين في تجنب ذرائعه لمهاجمتهم، لن يتردد عن افتراسهم، أو قضم بعض أطرافهم الزائدة عن حاجتهم، ربما لأنه فقط رأي في المنام رؤيةً مزعجةً عن مستقبل سابع أحفاده، وتلك كما تعلمون، ذريعةٌ قويةٌ ويتفهمها العالم بسهولة دائماً...!

إن من ينصحون المقاومة بعدم منح العدو ذريعة للعدوان، هم يخجلون فقط من مطالبتها بالاستسلام.

وللأسف يحلو للبعض عن جهل وعن قصد، تحميل المقاومة مسؤولية التوحش الصهيوني، لأنه من السهل على الجبناء وذوي الوعي الممسوخ وما أكثرهم، أن يجدوا من يحملونه مسؤولية معاناتهم دون أن يجدوا أنفسهم مجبرين على

تكلفة مقاتلته، ولهذا بدلاً من مقاتلة العدو وتحقيق ثأرنا منه، تنادوا إلى أسهل الخيارات ولعنوا من يقاوم، وهذا نموذج موجود في كل ثورات الدنيا.

الخلل الجوهري

إنني لا أجد أن المقاومة أخطأت في الهجوم، لا في فكرة الهجوم، ولا في حجمه ولا توقيته، إن الخلل الوحيد والجوهري الذي وقعت فيه المقاومة، هو تقدير الموقف الاستخباري المستقر لديها حول حجم ردة فعل العدو.

لقد كان تقدير الموقف يتمحور حول توقع ردة فعل عنيفة على غرار معركة ٢٠١٤، مع دخول بري أوسع لكنه في المحصلة الإجمالية يبقى في صنف المحدود، دون الوصول إلى عمق الأماكن السكنية المكتظة "المناطق الحيوية"، إذ لم يكن في المخيلة أن يتلقى العدو مثل هذا الغطاء الدولي والتغافل الإقليمي لهذا الحجم المهول والغير منطقي ولا المسبوق، من الاستخدام الموحش للقوة ضد المدنيين.

في ظني أن هذا الخلل، هو السبب الجوهري المفسر لكل السياسات السابقة والتالية لهجوم السابع من أكتوبر، ذلك أن تقدير المقاومة لرد فعل العدو، تنبني عليها خطة الهجوم، وأهم منها خطة الدفاع، وكذلك خطة التعامل مع الجبهة الداخلية.

يظن البعض أن تقدير ردة فعل العدو بشكل سليم، يترتب عليه ألا تقوم المقاومة بهجومها، أو تجعله صغيراً ومحدوداً، وهذا في الحقيقة وصفة لتكرير المكرر وتجربة المجرب، أو هو في جوهره وصفة استسلام متسترة بقناع

البصيرة الحكيمة، لأنك طالما تقاوم فلا شيء في كل الدنيا يمكن أن يضمن مستوى ردة فعل العدو، لأنه في الحقيقة تكون رد فعل العدو متناسبة دائماً مع ما يريد هو لا مع ما فعلنا نحن، والتاريخ الفلسطيني شاهد متجدد.

ولذلك فعند الحديث عن هذا الخلل، لا أعني به عدم القيام بهجوم السابع بناء على توقع سليم لردة فعل العدو، بل وضع الخطتين الدفاعية والهجومية بناء على تقدير الموقف السليم، والذي يعني تغييراً في أسلوب وبنية الدفاع، وكذلك تغييرا في بعض التفاصيل المتعلقة بالهجوم ولا أعني اطلاقا تقليل حجم الهجوم أو تقليص أهدافه.

لقد تم تصميم الدفاع وإدارة نيران الدعم القتالي، بناء على تقدير الموقف القاضي بقصر وقت المعركة، وعدم استعداد العدو لدفع ثمن احتلال القطاع في الوقت الراهن، وعدم قدرة العدو على استخدام ما رأيناه من قوة بالغة في الإفراط بغطاء ودعم دولي، مما يمكنه من كسر الخطوط الدفاعية والوصول للمناطق الحيوية " قلب المدن" تحت هذا الجحيم من القصف والقتل الدموي الغير مسبوق.

ولو كانت ردة فعل العدو مقدرة بشكل سليم تماماً، لكان حجم الأنفاق والعقد القتالية في المناطق الحيوية "قلب المدن" عشرة أضعاف ما كانت عليه، ولكان في حسبان الهجوم عدداً مضاعفاً جداً من الأسرى، ولتم تقنين نيران أسلحة الدعم القتالي بما فيها الصواريخ والمدفعية بما يتناسب مع طول أمد المعركة،

ولتم احداث تجهيزات هندسية ونسفيات تتناسب مع حجم هجوم العدو، ولتم اعداد احتياطي كافي لمختلف صنوف العتاد لمعركة الاستنزاف والطرد.

حكمة بأثر رجعي.

إن مقتضى الإنصاف، ألا نثقل في اللوم على المقاومة بخصوص تقديرها لردة فعل العدو، أولاً لأن ضيق دائرة اتخاذ القرار في هكذا هجوم تحرم صاحب القرار من سعة التفكير وتنوع الآراء، ولا يمكن لهجوم بهذا التكتيك أن ينجح مع توسيع دائرة صانعيه.

وثانياً لأن الأغلبية الساحقة من المحللين والسياسيين وحتى قيادات العمل السياسي لا سيما الجهابذة منهم، لم يكن يتوقع حتى في يوم العاشر من أكتوبر، حجم ردة الفعل التي وصل إليها العدو اليوم، وأقول العاشر من أكتوبر، أي بعدما تبين حجم الهجوم من قبل المقاومة، وتبينت عينات من ردود فعل العدو، فكيف نطلب أن نوقع أقصى درجات اللوم على من لم يتوقع رد فعل العدو بهذا الشكل الذي رأيناه، وهو يخطط لهجوم تكون نتائجه أقل بكثير من هذا النجاح الذي شاهدناه.

إنني على يقين، أن قلة نادرة لا تتجاوز أصابع اليد، كانت تتوقع حجم ردة فعل العدو، بناء على تقدير واعي للموقف السياسي والميداني طرف العالم والإقليم والعدو والصديق، أما من يحكم تقديرهم للموقف، الجبن الفطري، أو الحقد النفسي، فطبيعي جداً أن يتوقعوا حجم ردة فعل حتى العدو لم يفكر بها إلى الآن...!!

وإن هذا الحديث كله هو مجرد حكمة بأثر رجعي، بعدما أبصرنا بعيوننا ما لم تبصره قريحتنا التحليلية قبل حدوث الذي حدث، ولا نجرؤ على الزعم، أننا أكثر وعياً وحكمة ممن سطر هذه الملحمة البطولية التي ستسجل في التاريخ الإنساني كإحدى أفضل الخطط العسكرية الإبداعية والاحترافية عبر التاريخ القديم والمعاصر.

العتب المشروع

إذا كان هناك من شيء يمكن أن نمتلك فيه حق اللوم على قيادة المقاومة، فهو عدم وجود خطة ناضجة لإدارة الجبهة الداخلية، مع الإقرار أن جزءً كبيراً من الخلل ينبني على الخلل السابق المتعلق بتقدير ردة فعل العدو، ومع علمنا بوجود خطة جاهزة لحالة الطوارئ وإدراكنا أن المعركة كانت فوق التوقعات، لكن في ظني أنه كان بالإمكان أحسن مما كان، لكن في نفس الوقت نجد الكثير ممن يتحامل في هذه النقطة أكثر مما ينبغي، وإن حرباً بهذه القسوة واستهدافاً غاشماً شاملاً لكل مكونات العمل الحركي والحكومي كان كفيلاً بإسقاط دولٍ وأنظمة مستقرة ذات موارد ضخمة.

انه أمر صعب بشكل لا يمكن تخيله، أن تكون كل طبقات اتخاذ القرار في موضع الاستهداف الغاشم، وأن تكون وسائل القيادات الدنيا –التي صار عليها عبئ المتابعة– لاستقراء الواقع وبالتالي التغيير فيه، من خلال المراسلين وبعض المحيطين، وحتى هذه الوسيلة البدائية غالباً ما تكون سبباً في استهداف هذه القيادات المدنية من قبل العدو رغم أنها في أسفل الهرم القيادي.

وهنا لا يمكنني أن أحترم أي عملية نقد أو لوم شـــامل، أو حتى نقد في نقاط محددة دون تقديم بديل ناضـــج، مع يقيني أن كثيراً من البدائل التي نظنها ناضـجة تؤدي عند تنفيذها إلى إشـكالات أخرى كانت تحلها البدائل السـابقة، ومع ذلك فإنني أجد مســاحة للعتاب في هذا الصـــعيد خاصـــة ذلك العتاب الصادق والحريص، ولست أريد الخوض في التفاصيل في هذا التوقيت.

الثمن المدفوع *"من المسؤول؟"*

يحلو للكثيرين، تحميل المقاومة مســؤولية اليد المطلقة للعدو في إجرامها المجنون بحق الشعب المحاصر من كل جهاته في القطاع، وكأن ثمة فعل في الدنيا يمكن أن يبرر هذه الوحشية الفجة المرتكبة أمام مسمع الدنيا دون حراك.

إن كل احتلال في العالم عبر التاريخ، كان يراعي في وحشيته القمعية للثورات، خطين عريضـــين يحكمان فعله ويكبحان توحشـــه، حتى لا تنفلت منه أزِمَّةُ الأمور، فتصبح وحشيته سببا في هلاكه لا في إخماد الثورة التي تعاكسه.

أولهما أنه يصـنع فارقاً ولو شـكلياً، بين الشـعب المسـتكين "فئة الأخيار" وبين حفنة الثائرين ومعاونيهم " فريق الأشـرار"، ثم يصـب وحشـيته على ما يعتبرهم المتمردين، حتى يخلق تشوهاً وخداعاً وعيوياً، تمنحه فرصة الاستفراد بالثائرين، محافظاً على اســـتكانة الأغلبية المتبقية، إذ أن الطبيعي في كل الثورات أن الثائرين أقلية في ذاتهم وإن كانوا يمثلون ضمير الأغلبية.

الثـاني أنـه إذ يفرط في القوة والعنف لكن لا يتجـاوز الحـد الـذي لا يمكن للمســتكينين احتماله، فيصــبح أمام ثورة شــاملة بلا حدود، ولا يســتخدم القوة

المطلقة البالغة في التوحش حتى لا يستجلب عليه اصطفافاً من الشعوب المحيطة، التي تستجيب فطرتها الإنسانية الطبيعية لإغاثة جيرانها، أو تدفع عن نفسها إن صمتت أن يمتد لها ما أصابهم.

إنك لتقف مشدوهاً مذهولاً، ليس أمام وحشية الاحتلال المتجاوزة لكل حدود العقل الإنساني، ولا لشنه معركة شعواء يفتح فيها نيرانه على الناس أجمعين دون تمييز أو تفرقة، فلا يسلم منه الشيخ الكبير ولا الطفل الوليد، ويرتكب في كل يوم مجموعة من المجازر، التي كان للتاريخ أن يتوقف عند حدوث أمثالها كل عقدين من الزمان في أصقاع مختلفة ومترامية.

إنك تقف في الحقيقة مذهولاً أمام البلادة الإنسانية اللامسبوقة، من القريب الوطني قبل الصديق العربي قبل الغريب العالمي، والتي لولا استفحالها في الانحطاط أو التآمر، لما فقد الاحتلال كوابحه المنطقية، ولما وجد يده طليقة يفعل بشعبنا الأفاعيل، ويجعل الثمن المدفوع مضاعفاً بلا حساب ولا عواقب.

في الحقيقة إن من يتحمل مسؤولية هذا الثمن المجنون، ليس من قام بواجبه الطبيعي في مقاومة عدو يعتقل آلاف الفلسطينيين في ظروف لا إنسانية لسنوات طويلة جدا بلا أي أمل في الحرية، عدو يقضم الأرض وينتهك السيادة ويضاعف الاستيطان ويستبيح القدس ويستهدف الاقصى، ويفرض وقائع جديدة في كل يوم دون كابح ولا رادع.

بل إن من يتحمل مسؤولية هذا الثمن المهول، هو من لم يقم بدوره الطبيعي بل والفطري في كبح آلة البطش، وخلق أدوات تأثير على العدو "وما أكثرها"،

تجبره على ضـــبط ردات فعله، وتمنعه من التصـــرف المطلق بحياة الناس ومعاناتهم.

كيف يحدث كل هذا بغزة، بينما تبقى مســتوطنات الضــفة الشــاســعة آمنة مطمئنة، وهي على مرمى حجر من كل قرية ومدينة في الضـــفة التي لا تقل بؤســاً من حيث الاحتلال عن شـقيقتها، كيف يُذبح الفلسـطيني في غزة حرفياً وتسـيل بدمائه أودية الشـوارع، بينما يمارس الفلسـطيني الآخر حياته بشـكل طبيعي تماما، وهو لديه في كل دقيقة تقريبا فرصة للاشتباك من مسافة الصفر مع دورية للاحتلال أو حاجز أمن أو نقطة تفتيش أو بوابة مستوطنة.

إننا لا نتحدث عن مهاجمة الداخل المحتل "لا ســـمح الله"، إننا نتحدث عن المسـتوطنات في حدود ٦٧ التي كفلت كل قوانين الدنيا حقا شـرعيا بمقاومتها، إن بيد الفلسـطيني في الضـفة غابة من البنادق التي كان يمكنها إن تحركت، على الأقل كبح جنون العدو إن لم تستطع إيقافه.

دعنا من الكفاح المسـلح والعنيف "حاشـا لله"، أين المسـيرات الشـعبية الجارفة، وهي تبدو في مدريد الإسبانية أضـعاف مضـاعفة للحشـود الخجولة في رام الله الفلسطينية...! أين وسائل الكفاح اللاعنيف الفاعلة والمؤثرة؟!!، اين ردة الفعل في حدودها الأقل من الدنيا؟!!، أين.. وألف أين وأين.

إن المقاومة تتحمل الثمن الطبيعي لمقاومة الاحتلال، وهو ثمن ندفعه بفخر واعتزاز وشـــرف، أما الثمن المجنون بلا كوابح، فيتحمله بالكامل، كل من كان

في موقع الخذلان والتقصـــير لا من قدم دمه وخيرة رجاله وفلذات أكباده دفاعاً عن شعبه وثوابت قضيته.

في معركة مســخ الوعي الوطني، يشــن المتقاعســون بوقاحة بالغة الســفول، هجمةً إعلاميةً شــعواء، لتحميل المقاومة مسـؤولية الثمن المؤلم، الذي ما كان ليكون بهذا الإيلام، لو لم يكن التقاعس بهذه البلادة...!

وإنك لتعجب حد الذهول، أن كل الأنظمة المحيطة، التي تمارس دورا تآمريا واضـحاً مهما ألبست نفسـها ثياب التضـامن، قد نالت من فريق التقاعس قديماً وحديثاً حظاً وافراً من الاطراء والمديح والتضامن.

تساؤل مغيب

إن التساؤل الأكثر شيوعاً، يدور حول ماذا لو لم تقم المقاومة بهجومها الواسع في الســابع من أكتوبر، بينما يغفلون عن ســابق إصــرار وترصــد، الســؤال الجوهري والأهم، وهو ماذا لو قام الجميع بدورهم على وجه التمام، كما قامت المقاومة بدورها على وجه التمام؟

ماذا لو انتفضــت الضــفة عن آخرها، وفعَّلت كل الوســائل المتاحة شــعبياً أو عســكرياً في الثورة على الاحتلال، الذي كان يذلها ويهينها أضــعاف ما كان يوقع على غزة من الهوان، وزادت شــريحة المســتوطنين المتأثرين بالمعركة، الضــاغطين على حكومتهم يطلبون الأمن المفقود، ليكون ورقة ضــاغطة وكابحة لجنون العدو وبطشه اللامحدود.

ماذا لو استثمر النظام الفلسطيني الرسمي، هذا الحدث لإشعال ثورة سياسية ودبلوماسية في كل محافل الدنيا، توضح مظلومية الشعب الفلسطيني وتعيد القضية إلى جوهرها كمشروع تحرر وطني وحق فلسطيني مغتصب، وربط الأمن الصهيوني بالحق الفلسطيني، ليس من أجل الدفاع عن غزة، بل من أجل تقوية أوراقه التفاوضية، وحماية جدران مقاطعته من أن يتبول عليها جنود الاحتلال إن صادفوها محصورين...!

ماذا لو قاد ممثلنا الشرعي والوحيد، حراكا مكوكيا لا يهدأ على العواصم العربية والغربية، لتشكيل تحالف دولي فاعل، تمنع العدو من الاستفراد بغزة، أو البطش بها دون حساب، أو فرض دخول المساعدات الضرورية لبقاء الحياة على الأقل، إنه إذا لم يفعل ذلك في هذه الظروف، فما هي الظروف المناسبة ليفعل أي شيء...!

ماذا لو سخر السيل الجرار من موظفي الخارجية الفلسطينية، ممن تخصص لهم ميزانية رواتب بأرقام فلكية، ليلهم ونهارهم، في فضح جرائم الاحتلال وانتهاكاته وتثوير الرأي العالمي على هذه الفظاعات الوحشية.

ماذا لو قام جزء من فلسطيني الداخل بمعشار الدور المنوط بهم في هكذا معركة مفصلية، رافعين تكلفة العدوان، ومفقدين العدو نشوة الأمن من قريب، بعدما لم تعد غزة قادرة على الضغط الصاروخي من بعيد.

ماذا لو قامت الجالية الفلسطينية في دول الطوق، بالزحف الهادر نحو الحدود، مهما كلفهم الصـــدام من أثمان بالغة وكدمات موجعة وجروح عميقة، كيف استكثروا الثمن، بينما يسيل الدم أنهاراً من الغزيين في كل شارع وزقاق.

ماذا لو قام فلسطينيو المهجر بدورهم اللائق، وواصلوا الليل بالنهار، معتصمين بآلافهم في عواصم الدول الغربية، يفضحون على مدار الساعة واللحظة جرائم الاحتلال وفظاعاته.

إن هذه الأسئلة الجوهرية المستحقة، يراد لها أن تختفي خلف السؤال الأشد ظلما والأكثر سهولة، ماذا لو لم تفعل غزة؟، وهم لا يجيبون عن السؤال الذي يخصهم، ماذا لو هم فعلوا...؟!

ربما كانت المقاومة مخطئة في الرهان على قيام بعض الأطراف الفلســطينية الأخرى بدورها المطلوب، لكن ما هو قطعي ويقيني أن الأطراف التي لم تقم بدورها، ليســت مخطئة بل مجرمة...! مجرمة في حق نفســها قبل أن تكون مجرمة في حق القضــية وحق القطاع المكلوم، وبين المخطئ والمجرم فرق شاسع وكبير.

السؤال الصحيح:

لا شــك إن الثمن المدفوع حتى اللحظة، هو ثمن كبير وباهظ وبالغ التكلفة، الدماء الغزيرة العزيزة التي ســالت والبيوت التي هدمت والبنية التحتية التي دمرت وفلذات أكباد القضية وأفذاذها الذين ترجلوا، لكن من كان يحمل مشروعا تحرريا حقيقيا لا مجرد أمنيات حالمة أو خيالات رائقة، ســيجد أن كل هذه

الأثمان هي أثمان واجبة ومستحقة في سبيل مشروعنا التحرري، وكل واعٍ يدرك أن تحرير فلسطين بالذات، التي هي مركز الصراع العالمي، لن يكون سهلاً أو يسيراً، وأن ثمن حرية قضيتنا بحكم واقعها وسياقها وطبيعة احتلالها –الإحلالي وليس الاستعماري– سيكون مضاعفاً لأيٍ من أثمان تجارب التحرر في القرن الحديث، وفي مسيرة هذه القضية؛ وحدها التضحيات الجسيمة ستكشف خبايا النفوس، وتجيب عن مكنونات الضمائر، هل حقا نريد تحرير فلسطين أم أننا فقط نتمنى، لأن من يصدق الإرادة لن يجفله الثمن..!، وليس كل من ينتظر صلاح الدين لن يكون عند قدومه يترقب الصلح مع الفرنجة، قانعة بالسلامة غنيمة معتبرا أثمان ما قبل الفتح هزيمة...!

إننا كفلسطينيين طوال عمر قضيتنا كنا نطرح السؤال الخاطئ، كنا نسأل هل حقاً نريد تحرير فلسطين، لقد كان سؤالاً فارغاً، سؤالاً في قمة السهولة لكنه في أوج الخداع، إن السؤال الصحيح الذي كان ينبغي أن يكون، هل نحن حقا جاهزون لدفع الثمن...؟

إن ما رأيناه ولا زلنا في طور مشاهدته حتى اللحظة، هو جزء من الثمن الذي لا ندري كم سيصل حالياً ولا كم سيكون مستقبلاً، وإننا اذ ننقسم في آراء كثيرة، لكننا لا زلنا فريقين فقط، فريق يريد الحرية ومستعد لدفع الثمن، وفريق غارق في الأمنيات، البعض سيظن أنني أتحدث عن انقسامنا السياسي، والحقيقة أنني أتحدث عن انقسامنا الأساسي، وهو لمن لا يعلم، انقسام عابر لكل أحزابنا الوطنية على اختلاف ألوانها، إن كل أحزابنا تحتوي على كلا الفريقين

بدرجات متفاوتة، إننا لا ننقسم إلى حماس وفتح وفصائل أخرى، إننا جميعا ننقسم إلى من يريد ان يتحرر ومن يتمنى...!

وإن كل حديث عن المرحلة القادمة أو تنظير فكري وسياسي للواقع أو المستقبل، ينبغي أن ينطلق من نفس السؤال، وإنني شخصياً قد حجزت دوري سلفا مع أولئك الذين يريدون تحرير وطنهم وجهزت نفسي لأن أجد الثمن المدفوع حتى اللحظة، لا يزال ثمناً زهيداً، وإن المستغربين من وصف زهادته كثر، لكن من سيكرمهم الله برؤية وطنهم حراً سيكتشفون أنه أزهد.

هل انتصرنا؟

إن معركتنا مع الاحتلال لا زالت مستمرة، وستبقى، لم تنتصر ثورة في العالم بالضربة القاضية، الثورات تنتصر بالمراكمة والاستمرار، الضربة القاضية تعود للقوى الكبرى وليست للضعفاء، لكن النصر ليس شرطا أن يكون لمن يقطع باعاً طويلا في القوة، بل من يملك قدرةً أكبر على التحمل وقدرة على النهوض بعد كل ضربة قوية يظنها الخصم أنها قاضية.

في السمت العام للثورات وتجارب التحرر، لا تنتصر الثورة بمجرد أن تقرر القتال، كثير من تجارب التحرر خاضت موجات من حروب استقلال باهظة الثمن تكسرت على صخرة بطش المحتلين، لكنها في النهاية أعادت الكرة من جديد، وحاولت مرة واثنتان وثلاث وعشرين، إلى أن وجد المحتل نفسه منهكاً، والحقيقة أن الشعوب الثائرة تكون أكثر تعباً وإنهاكاً وفقراً وألماً، لكن وحده

الأمل والتمسك بالحق ومعرفة قيمة الحرية، هم ما يجعلونها تواصل الطريق ولا تتوقف عند نصف ثورة أو نصف حل.

إن غالبية المعارك بين الثوار والمحتلين لا تنتهي بنصـــر أو هزيمة، إلا في حالتين لا ثالث لهما، أن يزول الاحتلال أو تستسلم الثورة، أما ما بينهما من ســـجالات ومعارك عديدة، فلا تنتهي بنصـــر الثوار أو هزيمة الأعداء أو عكسهما مهما كانت النتائج لصالح الثوار أو المحتلين، تنتهي السجالات بأن الثورة لم تنتصر لكنها لم تُهزم، وهذا توصيف كاف بما فيه الكفاية...!

إننا في كل معاركنا السابقة مع العدو لم ننتصر، لكن هذا التوصيف ليس هو الشق المهم في التقييم، الشق الأهم والجوهري أننا لم نُهزم، وهذه المعركة جزء من سلسة السجالات مع العدو، إننا قطعا لم ننتصر، لكننا نحن وحدنا من سيقرر إذا كنا سنُهزم.

إن الخسائر البشرية والمادية يمكن احتمالها، كما احتملتها كل مشاريع التحرر عبر التاريخ، لكن الخســـارة الحقيقية الوحيدة والفادحة التي لا يمكن احتمالها، أن نتلقى كل هذه الضربة الموجعة ثم لا ننهض من جديد، لنقاتل...!

إن كل موجات الثورة السورية لم تنتصر، وتعرضت لضربات شديدة وقوية لكنها لم تُهزم، في ٢٠١٨ أصـــبح الكل يتحدث عن الثورة الســـورية باعتبارها مغامرة لم يحسب حسابها، طيش ثوري أدى إلى تدمير سوريا وتشظيتها، فعل كارثي ونتائج كارثية، وفي الحقيقة لم يكن شـــيء ســـيكون أكثر كارثية، إلا

اقتناع الثورة واتخاذها قراراً بالهزيمة، إن النصـــر فعل قد تســـتطيعه وقد لا تستطيعه، لكن الهزيمة ليست سوى قرار.

ولك أن تتخيل قيمة التضـــحيات والآلام وقطع اللحم المتناثرة تحت البراميل المتفجرة والأنفاس المحروقة بالســارين، والجثث المتهادية على اعواد المشــانق او تلك التي أجبرت على حفر قبرها بيدها قبل ان تدفن فيه حية، لو أن الثورة اكتفت من دفع الثمن، ثم لم تنهض من جديد.

إن الثورات حين تُغمس في فجر انتصـــارها، تجد أنها في نعيمٍ من لم يمســـه شـقاء قط، ولا تعود التضـحيات ممزوجةً بالحسـرة بل مزخرفةً بالفخر، واسـألوا الثورة السـورية التي يدخل رجالها سـاحات دمشـق وقت كتابة هذه السـطور وستكتشفون المعنى.

وفي هذه المعركة المفصـلية من تاريخ شـعبنا الفلسـطيني وقضـيته، من الترف الساذج جداً أن يتساءل المرء عن النصر او الهزيمة، بينما الواجب الوحيد ان يتساءل المرء عن دوره في ألا نُهزم، وعندها يكون العدو لم ينتصر.

في مشـاريع التحرر الحقيقية والصـادقة، كل ضـربة للاحتلال هي خطوة على طريق النصر، وكل ثمن مدفوع هو وقود لاستمرار المعركة ودافع لثأر الأجيال وتراكم مخزونها الوطني، لكن في الثورات المدجنة وحركات التحرر الأرزقية المحنكة كما تحب أن تحســـب نفســـها، كل ضـــربة للعدو هي تهور غير محسوب، وكل ثمن مدفوع هو فرصـة لتعزيز وإشـاعة فلسـفة الهزيمة، وعندها تصبح الخيانة مشروعاً وطنياً وليست حتى وجهة نظر...!

الفصل الثاني:

مآلات الطوفان

مخطط الحرب الاستراتيجي " تصفير الأخطار"

وفق المناورات والتدريبات الخاصة بجيش العدو قبل معركة طوفان الأقصى، فالراجح أن خطة دولة الاحتلال الاستراتيجية أن تخوض حرباً متزامنةً على جبهات متعددة، تمتلك فيها عنصر المفاجأة والمبادرة، حيث تبدأ –عندما تكون الظروف جاهزة– بضربة قاصمة على إيران، تتبعها فوراً أو تتزامن معها ضربة لغزة وحزب الله، وبينما كانت الظروف متاحة لضربة غزة ولبنان إلا أنها لم تكن ناضجة بعد للتعامل مع الخطر الإيراني، وذلك لأنها تستطيع أن تتعامل وحدها مع غزة ولبنان، بينما قدراتها لا تمكنها من التعامل مع التهديد الإيراني بشكل منفرد، بل تحتاج إلى إشراك تحالف دولي على رأسه أمريكا لشن الهجوم، وهو ما كان يسعى اليه العدو قبيل الحرب.

لقد أفقد هجوم السابع من أكتوبر العدو ميزة الضربة الأولى، وكذلك حرمه من خوض المعركة في الوقت المتناسب مع جهوزيته العسكرية لتحقيق الأهداف الاستراتيجية على الجبهات الثلاث بما يتناسب مع وزن إعلان حالة الحرب، مما دفع العدو الصهيوني إلى تسريع مخططاته الاستراتيجية التي كان يؤجلها ويطبخها على نار هادئة، وبما أن الحرب أصبحت أمراً واقعاً، فإنه سعى من خلالها إلى تحقيق أكبر ما يمكن إنجازه، فالحرب لا يمكن إعلانها كل يوم ولا حتى كل بضع سنوات، ولم تكن دولة العدو تتقبل أن تدخل في حرب أخرى بحجم حرب غزة أو أكثر بعد سنتين او ثلاث أو حتى عشرة، ولذلك وضعت في حساباتها أنها طالما دخلت في حرب فلا بد أن يكون إنجازها على مستوى حرب وليس على مستوى عملية عسكرية كبرى، والفرق بين الحرب والعملية

العسكرية، كالفرق بي حرب ١٩٦٧ ومعركة العصف المأكول في صيف ٢٠١٤.

ارتكزت خطة العدو على تصفير الاخطار الاستراتيجية (غزة – لبنان – إيران) على دولة الكيان، لتأمين بقائها لعدة عقود قادمة، والحديث لا يدور هنا عن ردة فعل، بل عن مخططات مسبقة ونوايا قديمة، مشفوعة بجهود استخبارية لم تتوقف خلال سنوات على كافة الجبهات، وليس على جبهة القطاع وحدها.

وبينما كانت الغالبية العظمى تظن أنها حرب انتقامية على غزة، تهدف إلى رد الاعتبار والضغط لتحرير الأسرى، فالحقيقة أن هذا لم يكن اطلاقاً هو توجه العدو، بل كانت معركة استراتيجية يريد من خلالها العدو قلب موازين القوة في كل المنطقة لصالح الاحتلال، لقد كانت نية الاحتلال فعلاً، القضاء المطلق والنهائي على المقاومة في غزة ولبنان، مع توجيه ضربة استراتيجية قاصمة لإيران، وبالتالي تصفية الأخطار على دولة الكيان لسنوات طويلة، وآخر اهتمامات العدو كان ملف الأسرى، غير أنه بلا شك كان ولا يزال عامل ضغط وورقة مساومة قوية بيد المقاومة.

لقد كانت قوات العدو تتعامل مع غزة وفي نفس الوقت تعيد دراسة خطتها المعدة سلفا في لبنان، وتضيف إليها التحسينات النهائية، ومخطئ من كان يظن أن الهجوم على لبنان كان بسبب معركة الإسناد التي قادها حزب الله، العدو يعلم أن قدرة الحزب على تنفيذ هجوم مماثل للسابع من أكتوبر أكبر من قدرة وإمكانيات غزة المحاصرة، والمستوطنون في الشمال ما كانوا ليقبلوا البقاء

شـمالاً وهم تحت تهديد مضـاعف لما شـاهدوه في غلاف غزة، وكانوا يعرفون أن اقتطاع أصـبع الجليل بالنسـبة للحزب سـتكون أسـهل من قدرة غزة على مهاجمة الغلاف، والعدو كما أسـلفنا لن يخوض حرب مع غزة اليوم ويخوض حرب مع لبنان بعد سـنوات، العدو يريد الانتهاء من حالة الخوف على بقاء كيانه الغريب عن منطقة كلها تلفظه.

لقد كان العدو يتعمد اسـتفزاز لبنان ويجرها جرا للمعركة، وكانت المقاومة في لبنان تصـر على عدم كسـر قواعد الاشـتباك، ورغم كل محاولاتها للموازنة بين البقاء كجبهة اسناد دون الدخول في الحرب الشاملة، وجد حزب الله نفسه في حالة حرب فرضها عليه العدو ولم يترك له فسحة للتراجع، وسواء دخل الحزب في معركة اسـناد أم لم يدخل، كان العدو على كل الأحوال سـيفرض عليه المعركة لتأمين كيانه من خطر الشمال.

وحتى إيران التي كانت تمارس سـياسـة الصـبر الاسـتراتيجي، حاول العدو اسـتفزازها وجرها للمعركة جرا، حتى وصـل أوج الاسـتفزاز في اغتيال الشـهيد إسماعيل هنية رحمه الله في قلب طهران، وبذل كل جهده أن يحصل على دعم أمريكي في توجيه الضـربة المطلوبة لإيران بعد ردها الصـاروخي عليه، إلا ان الحسـابات الأمريكية لم تسـر على الهوى الصـهيوني وإن منحته بعض التعويضات الاستراتيجية في المقابل.

ومن المهم الانتباه، أن المعركة لو بدأت في لبنان أو حتى إيران، فبكل تأكيد سـتطال غزة بنفس الهدف الاسـتراتيجي–تصـفير الأخطار–، وبالتالي بنفس القسوة والإجرام.

فشل استراتيجي ونجاح تكتيكي

إن أي تقييم لنتائج المعركة، لا ينبغي ان يتم بقياس الوضع اللاحق بالوضع السابق، وإنما بقدرة دولة العدو أو عدم قدرتها على تحقيق هدف الحرب الاستراتيجي بتصفير الأخطار الثلاث، لأن هذه الحرب وإن كانت الضربة الأولى فيها للمقاومة، إلا أنها كانت استباقية لنفس الحرب بنفس الأهداف التي كانت تخطط لها دولة العدو قبل الطوفان.

لقد نالت غزة النصيب الأكبر والأقسى من الهجمة الصهيونية، أولاً باعتبارها مساحة مغلقة في الخاصرة الداخلية للعدو ومندرجة تحت السيادة الصهيونية سلفا وليست دولة مستقلة كلبنان، وثانياً لصغر مساحتها الجغرافية وضعف إمكاناتها العسكرية نتيجة الحصار، ووهن تضاريسها السهلية وعدم تمتعها بالموانع الطبيعية التي يمكن تسخيرها في الدفاع، ولا شك أن غزة تلقت ضربات مؤلمة وموجعة ومؤثرة في مقدراتها البشرية والعسكرية وبنية مقاومتها التحتية وأسلحتها الاستراتيجية.

ومع ذلك فإن العدو يعلم أنه حتى اللحظة لا يزال بعيداً جداً جداً، عن تحقيق هدفه بالقضاء النهائي على المقاومة وتصفير خطرها المستقبلي، وإذا كان العدو يتأذى من وضع الضفة التي نراها نحن في أسوء أحوالها الوطنية، فإن بين العدو وبين تحويل غزة إلى ضفة أخرى سنوات طويلة جداً من القتال.

لقد احتلت أمريكا العراق بما نسبته عُشر القوة النارية المستخدمة ضد غزة، واستطاعت أن تمارس حكماً مباشراً للشعب العراقي وأن تنتشر في المدن

والمحافظات وتقود الإدارات المدنية في الدولة، فيما حتى اللحظة وبعد أكثر من عام من القصف والقتل والإبادة التي لم يسبق لها مثيل، لا تستطيع دبابة صهيونية واحدة أن تتواجد في منطقة مدنية ولو على الأطراف، دون استخدام القصف التمهيدي والقوة النارية المفرطة كغطاء للدخول ثم الانسحاب الفوري والسريع، وحتى هذه اللحظة لا يستطيع العدو إطلاقاً على المدى القريب أن يدير غزة أمنياً بشكل مباشر، ولا تستطيع أي قوى أخرى محلية أو إقليمية أن تدير غزة أمنياً دون إذن المقاومة وإرادتها.

إذا كان هف العدو إضعاف غزة فلا شك أنه حقق شيئاً كبيراً، أما إذا كان هدف الاحتلال إنهاء المقاومة في غزة وتصفير خطرها بما يسميه النصر المطلق فحتى اللحظة لا يتعدى إنجازه إلا أن يكون صفراً مطلق.

أما على جبهة لبنان فقد وضع العدو خطته بناء على معلومات حساسة وواسعة ودقيقة، وكان ظن العدو أنها شبه شاملة وكافية لإفقاد الحزب توازنه الميداني بالكامل وإخماد قدرة نيرانه الصاروخية، مما يمكنها من العبور حتى نهر الليطاني، وفرض وقائع عسكرية على الأرض تمكنها من تفكيك قدرات حزب الله وبنيته التحتية في الجنوب على غرار ما حصل في غزة.

ومن هنا كانت استهدافات البيجر وأجهزة اللاسلكي، والتي كان يتوقع أن تقضي على كل صف القيادة الميدانية من أسفل الهرم إلى أعلاه، ثم الاستهدافات الدقيقة والمركزة لمنظومة القيادة والسيطرة والقضاء على معظم القيادات الميدانية العليا في الحزب، ثم الضربات الواسعة والمكثفة لبنك كبير

من الأهداف الصـــاروخية التي ظن من خلالها أنه أفقد الحزب قدرته على توجيه رمايات مؤثرة على العمق الصهيوني.

عند التنفيذ واســـتثمار هذه الهجمات لتحقيق دخول بري ســـلس بأقل تكاليف ممكنة، فوجئ العدو بقدرة الحزب الدفاعية والتي زادت التضاريس من فعاليتها، وفوجئ بحجم الخسائر الميدانية على تخوم الجنوب الأولى، وفوجئ أكثر بقدرة الحزب على نقل المعركة بالقوة الصـــاروخية إلى العمق الصـــهيوني، ما مثل فشـلاً اسـتخبارياً خالف توقعات العدو ، وأجبر العدو على خوض معركة برية متعثرة تحت الضغط الصاروخي، والعجيب أنه حتى اللحظات الأخيرة والحزب متمسك بضرب أهداف عسكرية ولم يدخل بعد في مرحلة الضغط الموسع على المدنيين، ويبدو أن الحزب أدار موارده العســـكرية بشـــكل مقنن يمكنه من استمرار الزخم القتالي لشهور وربما سنوات.

أيضاً نجح العدو قليلاً في إضعاف حزب الله، لكنه لم يقترب إطلاقاً من تحقيق هدفه بإنهاء خطر الحزب، لا ســـيما مع قدرة الحزب على ترميم قدرته بخط إمداد كان مفتوحا وقت توقيع اتفاق وقف الحرب مع حزب الله، وحقق نجاحا تكتيكياً بفصل جبهة الشمال عن الجنوب.

وحتى بعد قطع خط إمداد الحزب عبر ســورية فلا زال الحزب يشــكل تهديداً جوهرياً على الكيان، وكل ما حققه العدو هو تأجيل المعركة وتأخير الخطر وليس القضاء عليه.

أما على الجبهة الإيرانية، فقد فشـــل العدو حتى اللحظة في حشـــد التحالف الدولي المناسب لتوجيه ضـربة قاصـمة إلى إيران، ولا تزال إيران تشكل خطراً محورياً على العدو الصـهيوني، وإن منيت بضـربة سـياسـية وفقدت السـاحة السـورية إلا أنها لا تزال ماضـية في مشـروعها النووي، ومؤثرة في عدد من السـاحات الإقليمية، واحتمالية نسـج علاقة جديدة مع النظام الجديد في سـوريا ليست أمراً مستحيلاً ولا مستبعداً ولو بعد حين.

وفي المحصلة العامة فقد حقق العدو نجاحاً تكتيكياً لكنه لم يستطع تحقيق أي من الأهداف الاسـتراتيجية الكبرى التي شـن من أجلها هذه الحرب الشـعواء والطاحنة، ولا تزال دولة العدو محاطةً بالأعداء ولن تنعم بالاسـتقرار والهدوء خلال الأعوام التالية.

المفاجأة السورية

ما حدث في سـوريا لاحقاً كان هو الضـربة الأكبر لحزب الله، ولم يكن نجاح الثورة بإسـقاط النظام وليد مخطط صـهيوني ولا أمريكي، إذا كان هناك خطة فربما كانت إشغال الحزب وإيران في معركة جديدة داخل سوريا، وفق معلومات استخبارية حول الهجمات التي تخطط لها المعارضـة السورية بدعم تركي، ولم يكن حتى في حسـبان المعارضـة، أن تنجح في دخول العاصـمة السـورية دمشق.

لكن انهيار النظام المفاجئ ودخول الثوار دمشـق فاق كل التوقعات، وأربك جميع الأطراف الصديقة والمعادية على حد سواء، ما دفع بالعدو لشن هجمات

استباقية شاملة على القدرات العسكرية السورية عقب سقوط النظام، لأنها لا تعرف نوايا النظام الجديد ولا تظنه سيحول سوريا إلى بيئة صديقة.

إن نجاح الثورة السورية كان من أغرب التجارب الشعورية المتناقضة التي مررنا بها كمقاومة فلسطينية، لقد فرحنا لنجاح الثورة وانتصار المظلومية السورية على نظام البطش الدموي الذي كانت المقاومة مكرهة في السنوات الأخيرة نتيجة الخذلان العربي والسني على محاولات باردة لفتح صفحة جديدة معه بعد القطيعة الحاصلة نتيجة انحياز حماس للثورة في مطلعها، وفي نفس الوقت كان شعوراً محزناً ومقلقاً أن يتلقى محور المقاومة هذه الضربة المؤلمة التي قطعت تواصله الجغرافي وعقدت خطوط إمداده في اللحظة التي نحن بأمس الحاجة فيه إلى تزايد الخطر على العدو لا تناقصه.

ومع ذلك فإن ما حصل في سوريا مخالف لمصلحتنا على المدى التكتيكي القصير، لكنه في ظني سينقلب لصالحنا على المدى الاستراتيجي البعيد، فنظام الثورة وقواها التي اسقطت النظام، تتقارب خلفيتها الفكرية والأيدلوجية مع المقاومة في غزة، وتتشارك معنا عدائها للعدو الصهيوني، وإن أكثر ما سيشكل تهديد على الكيان، هو وجود كيان سني داعم للمقاومة وليس مناوئا لها، وستكون سوريا مستقبلاً هي أول نظام سني في دول الطوق تصطف في عداء مع الكيان الصهيوني، وكنت ولا زلت أقول أن الخطر الحقيقي على العدو ليس المشروع الإيراني بل استيقاظ المشروع السني.

وتلك أمنيات ستلقى في طريق تحقيقها عقبات كثيرة وتحديات ضخمة، وستحاول أمريكا والكيان دس أصابعها لتطويع النظام الجديد، وكل ما أتمناه أن تكون الثورة السورية على درجة من الوعي المتجاوز للطائفية، وأن تستطيع إيران ابتلاع هزيمتها التكتيكية في سوريا ونسج علاقة جديدة تتجاوز البعد الطائفي، وتتحرر من عقدتها الأيدلوجية وتصوب خطأها التاريخي في مساندة النظام السوري المجرم ضد الثورة السورية بدل من مساعدة النظام على اجراء إصلاحات سياسية تحافظ عليه وتديم تحالفها مع سوريا شعباً ونظاماً بعد أن كان التحالف على مستوى النظام، وقد تكون حماس هي المرشح الأبرز للعب الدور الوسيط لتقريب وجهات النظر بين المحور السني والشيعي في المنطقة.

مخطط الاحتلال تجاه غزة "شيء من التفصيل"

يتعامل العدو مع غزة كحالة خاصة، باعتبارها شأناً خاصاً بالاحتلال وليست دولة أو كيان مستقل، وكذلك باعتبارها مصدر الإزعاج المزمن والتعطيل المتواصل لكل رغبات الاحتلال بالهدوء والاستقرار والاندماج في المنطقة، والجزء الحي من القضية الفلسطينية الذي لا يزال جهازه المناعي فاعلاً وغير مستسلم لفرض الوقائع على الأرض الهادفة إلى تصفية القضية الفلسطينية واستسلام أهلها.

لقد كانت خطة العدو منذ البداية تهدف إلى تهجير الغزيين طوعاً وكرهاً، وراودوا مصر بداية الحرب على القبول باستقبال اللاجئين الغزيين مؤقتاً، والمؤقت في قاموس الاحتلال يشبه كثيرا كلمة دائم، ورفض النظام المصري

هذا الطرح، ليس حباً فينا ولكن خوفاً منا على ما أعتقد، ووجد العدو نفسه مضطراً للتعامل مع وجود منطقة إنسانية في الجنوب لا في سيناء، ولا شك اطلاقاً أن صدمة العدو كانت كبيرةً جداً بصمود غزة الأسطوري، وحتى اللحظة؛ فقد أفشل أهل غزة والشمال الميامين الأكارم أخطر خطة صهيونية على القطاع ووأدت مشروع التهجير في مهده وقد دفعوا في ذلك أثمان كبيرة جداً، رضي الله عنهم أجمعين، ولا زالت الخطة مستمرة ولا زال الصمود أكبر من أسطوري.

أما خطته العملياتية فارتكزت إلى كسر الدفاعات الصلبة للمقاومة عبر تفكيك بنية الأنفاق بالتدمير وتقطيع الأوصال، وعزل المناطق الجغرافية التي يدخلها عن خطوط الامداد والاتصال والتواصل، مما يسهل عمليات العبور إلى العمق بتكلفة أقل وظهر محمي، واستخدم سياسة الأرض المجروفة لتدمير البنية الصاروخية حيث توسع بشكل كبير جداً في عملية تجريف الأراضي حتى طالت أغلب المساحة الجغرافية للقطاع بالمعنى الحرفي ودون مبالغة.

نعم كانت الضربات قاسية ومؤلمة وأحيانا فادحة ومؤثرة، لكن ومع كل هذه الحرب الشعواء والأرض المحروقة والفرق العسكرية المتعددة التي خصصت لتفكيك دفاعات غزة وكانت من قبل تخصص لاحتلال دول، فقد صدم العدو من قدرة المقاومة على البقاء والتجدد، وعدم قدرته حتى الان على السيطرة الميدانية المباشرة أو غير المباشرة ولو على قرية صغيرة في القطاع، ولا زال في كل مرة يدخل إلى منطقة يتعامل معها كأنه يدخلها للمرة الأولى، فيما تقاتله هي أكثر مما قاتلته في المرة الأولى.

وقد اســـتطاعت المقاومة المزاوجة بين الحفاظ على الهرم التنظيمي والمرونة العملياتية، ولم تتأثر كثيرا بفقد القيادات الميدانية مهما كانت منزلتها في أدنى الهرم أو أعلاه، ولا زالت الكمائن تعمل بفاعلية وتنقل الخبر والصـــورة من الميدان إلى الإعلام دون تأخير أو إبطاء.

ثم إن أغلب المنصـــات الصـــاروخية التي راحت ضـــحية التجريف، كانت قد أُطلقت سلفاً، حيث ابتدأت المقاومة بكثافة نارية عالية بناء على تقدير الموقف المتوقِع قصـــر أمد المعركة، ثم إن المقاومة كانت تطلق العدد الأكبر من الرشقات المتواجدة تحت التهديد البري قبل وصول الآليات إليها، ومع ذلك فلا زالت المقاومة بين الفينة والأخرى تعلن قدرتها على استهداف تل أبيب، وتذكير عمق الكيان أن غزة ما زالت حاضـرة وتمتلك الأظافر، ويبدو أن ثمة سـياسـة منهجية لتقنين القصـــف الصـــاروخي، بســـبب طول أمد المعركة أكثر من المتوقع، ولانعدام خطوط الإمداد تحت ســـطوة المعركة، أما الغلاف فيبدو من الرمايات المتقطعة أن نصيبه من المخزون أكثر وفرة.

أما خطته السـياسـية، فكانت ولا زالت القضـاء على مظاهر السـيطرة الأمنية للمقاومة في غزة، وتفكيك منظومة حكمها، مع عدم تسـليم الحكم للسـلطة، بل إلى كيانات قبلية وعشـائرية أو عصـابات مسـلحة، تأخذ أدوار الحكم في غزة بالنيابة عن الاحتلال، وبذلك يتم تصفية القطاع وفصله عن النظام الفلسطيني، فالعدو يريد إبقاء غزة تحت الســـيطرة الأمنية للاحتلال دون الدخول في التفاصـــيل الإدارية حتى لا يتحمل التبعات المترتبة عليه كقوة احتلال، بمعنى أنه يريد حكم غزة دون أن يكون حاكمها.

ولقد أفشلت المقاومة حتى الآن كل المحاولات التي بذلها لخلق كيانات بديلة لإدارة بعض الشؤون في غزة كالمساعدات وغيرها، وحافظت بشكل أو بآخر ولو بشكل محدود على تماسك الجبهة الداخلية وعدم تفكك أو تلاشي منظومة السيطرة الإدارية، رغم المخاطر الكبيرة لكل من يتصدر للعمل في هذا المجال، ولا يزال الواقع حتى اللحظة يفرض على أي كيان سياسي يمكن أن تكون له كلمة حاكمة في القطاع مستقبلاً، أن يكون مقبولاً من قوى المقاومة ولن يكون على الأقل أداة من أدوات الاحتلال.

وعلى صعيد خطة الاحتلال الأمنية فالعدو يسعى إلى تقسيم القطاع إلى قسمين عبر محور نتساريم، وربما ثلاث أو أكثر مستقبلاً لتسهيل السيطرة الأمنية وإضعاف قدرة المقاومة على التواصل الجغرافي ومنع انسيابية الإمداد العسكري بين المناطق، ويريد السيطرة على محور فلادلفيا، ليس فقط منعا للتهريب، بل لإفقاد القطاع أي عنصر من عناصر السيادة كالحدود المشتركة مع دولة أخرى مهما كان النظام المصري متعاوناً مع العدو أو حتى أداةً من أدواته، وفي خطته أن يحافظ على حريته في التدخل العملياتي جواً أو براً لإحباط ما يراه تهديداً أمنياً، ما يعني أن حالة الحرب لن تنتهي إلى سلم بالمعني السابق للعدوان، بل إلى أجواء مشابهة للانتفاضة الثانية في مرحلة الاغتيالات، ولهذا يريد الحفاظ على منطقة أمنية عازلة بمساحة واسعة على طول الحدود، ومنطقة أكثر اتساعاً ناحية الشمال، لتأمين التجمع الاستيطاني الأكثف سكاناً في سديروت، وليكون الشمال ورقة ضغط وتفاوض مستقبلي

تتحول مع الوقت إلى تنازل مؤلم يقدمه للفلسطينين بعد أكبر قدر من المماطلات والأثمان المقابلة.

بينما أفشلت المقاومة والشعب مخططات الاحتلال الأخرى، لكن يبقى هذا المخطط الأمني متجاوزاً لقدرات المقاومة في الوقت الحالي، والورقة القوية الوحيدة التي نملكها للضغط على الاحتلال حالياً هي ما نملكه من عدد كبير نسبيا من الأسرى، وهو العدد الذي كان يظن البعض أنه ورطتنا الكبيرة، بينما في الحقيقة أنه كان ورقتنا الأهم.

صحيح أننا حتى اللحظة لم ننجح في إفشال خطة الاحتلال الأمنية لكنني لم أعني إطلاقا أننا لن ننجح...!

غير أننا لن ننجح إلا إذا عرفنا ما نريد، وكنا جاهزين لدفع الثمن المؤدي إليه.

أهداف التفاوض بين الاحتلال والمقاومة

إن مسيرة التفاوض، تعطي تأكيداً أن ملف الأسرى هو آخر ما يهم حكومة العدو، وقد استخدمها العدو كوسيلة لكسب الوقت وتخفيف الضغط الداخلي بين الفينة والأخرى، لكن من خلال الشروط التي يضعها العدو نستشف الاستراتيجية العامة التي يسير وفقها العدو من خلال التفاوض

يحاول العدو من خلال التفاوض، تقليل عدد الأسرى ما أمكن بأقل قدر من التنازلات، مما يقلل من وزن ورقة الاسرى كعامل ضغط وحيد بيد المقاومة لافشال خطته الأمنية.

كما يسعى أن يحصل سياسيا من خلال التفاوض، ما لم يستطيع تحقيقه ميدانياً من خلال الدبابات، وهو اقصاء المقاومة عن التأثير، وتسليم القطاع إلى جهة تديره وفق هوى الاحتلال بالنيابة، ويحرم المقاومة من القدرة على ترميم قوتها، والاحتفاظ بحق التدخل الجراحي لتحييد أي تهديد مستقبلي.

أما المقاومة فهي تسعى بالأساس إلى إفشال خطة الاحتلال الأمنية من خلال ما تملكه من ورقة ضغط متمثلة في الاسرى، وبالتالي إجبار العدو على الانسحاب من القطاع لا سيما محوري نتساريم وفلادلفيا، ما يمثل الضربة القاضية لأهداف العدو الاستراتيجية من الحرب وفشله في تصفير خطر غزة على المدى البعيد.

كذلك تحاول المقاومة أن تحصل مكسباً مقبولاً في قضية الاسرى، بعد كل هذه التضحيات الجسام والحرب المهولة، إذ قد تكون هذه الحرب آخر فرصة لتحرير الاسرى خلال عشر سنوات قادمة أو أكثر.

كما تسعى المقاومة للحفاظ استراتيجياً على استقلال القرار الفلسطيني في قضية إدارة غزة بعد الحرب بعيداً عن الهيمنة الصهيونية، بغض النظر عن حجم التنازلات التي يمكن ان تقدمها في هذا السياق.

نقاط الضعف بين الاحتلال والمقاومة

إن نقاط الضعف في موقف العدو، تتمثل في عدد الاسرى لدى المقاومة، والضغط الدولي الراغب في انهاء الحرب، وتململ الجيش من طول المعركة، وثقل التكلفة الاقتصادية والأمنية لتواجد الاحتلال داخل غزة، مع عدم القدرة

على إلحاق هزيمة ساحقة بالمقاومة تمكن قواته من السيطرة الميدانية أو العمل بحرية، كما أن محوري نتساريم وفلدلفيا في حال بقائهما تحت السيطرة الأمنية الصهيونية، فهما يمثلان خطوط تماس عالية التهديد، مما يرفع تكلفتها الأمنية والاقتصادية على العدو.

أما المقاومة فلديها ثلاث نقاط ضعف رئيسة:

أولها هي الحالة المعيشية الصعبة بشكل جنوني لسكان القطاع، بين القصف الهمجي والقتل المتوحش الذي يفقد كل فرد من القطاع بلا استثناء أمنه الشخصي على حياته، وبين الحصار المطبق والتجويع الممنهج الذي يمارس على الناس بما يجعل القدرة على الحياة اليومية أمراً شاقاً ومضنياً، وعمليات الاخلاء المتكررة التي تخلف معاناة هائلة على شرائح واسعة في لحظة واحدة، إضافة للعمليات البرية المتفرقة بين الوقت والآخر ما يزيد من تدمير البقايا القليلة التي لم يتم تدميرها من المباني والممتلكات.

والثانية الحرب المعنوية الشعواء التي تشن على المقاومة، يقودها الاحتلال بشكل مباشر وممنهج، حتى أنه لا يفوت فرصة لربط معاناة الناس بسلوك المقاومة، وكثيراً ما يفتعل ذلك عن قصد، فحين تكون له أهداف ميدانية في منطقة ما بناءً على معلومات استخبارية أو اهداف معدة سلفاً، فإنه يقوم بطلب اخلائها على عجالة تحت مبرر إطلاق الصواريخ منها، بينما يدخلها بشكل همجي لتحقيق أهداف ميدانية بحتة، وإنني لم أجد حالة واحدة دخل العدو فيها بسبب الصواريخ، فهو لن يزج قواته في اتون الخطر ليلاحق كل صاروخين

سيخرجان من القطاع، وبينما تطلق المقاومة صواريخها من أقصى المناطق المصنفة "حمراء" بعيداً عن المدنيين، يطلب العدو أخلاء مناطق سكانية كانت مصنفة خضراء، فإذا كان له هدف ميداني يقوم بالتوغل فيها، وفي حال لا توجد له أهداف ميدانية، فهو يكتفي بترويع الناس وتكلفتهم مشقة الاخلاء ومعاناة النزوح المتكرر، وللأسف فإن ثمة من ينجر خلف الدعاية الصهيونية ويتبرع لتحقيق الأهداف الدعائية للاحتلال بقصد وبدون قصد.

والثالثة عدم تماسك الموقف الوطني الفلسطيني، وطرح السلطة نفسها كبديل معتدل ومتوفر، يقبل بالتنازلات التي لا تقبل المقاومة بتقديمها، وهذا الموقف يقلل من اصطفاف الشعب في غزة حول المقاومة، ويشكل عامل ضغط على تقديم تنازلات بدلاً من تصليب الموقف التفاوضي للمقاومة كمصلحة وطنية استراتيجية في وجه مخططات الاحتلال التصفوية.

المصلحة الاستراتيجية الوطنية العليا

كل ما حصل حتى الآن ليس هو ما ينبغي أن يشغلنا أو يكون هو محط سجالنا، لقد وقعت الفأس في الرأس، وسواء كان هجوم السابع من أكتوبر هو السبب في الأحداث، أو أنه كان حدثا استباقيا لخطة صهيونية قادمة لا محالة، وسواء كان الطوفان ذريعة لتوحش العدو أو هو كان فرصتنا في أن نملك الضربة الأولى وأن يكون لدينا ورقة قوية نسبيا نفاوض عليها، فليس هذا كله يهمنا في شيء حاليا.

الشيء الوحيد المهم حاليا، والذي ينبغي الاهتمام والانشغال به من كل وطني حريص، هو أن تتوقف الحرب بما لا يضر استراتيجياً بالقضية الفلسطينية، وهذا معناه، أن تكون ظروف اليوم التالي للمعركة تسمح بإعادة ترميم المقاومة لقوتها ولو بشكل بطيء جدا، وهذا يتطلب انسحاب العدو من القطاع، وعدم قدرة أي نظام قادم على إعادة تجربة الضفة الغربية مع المقاومة بعد ٢٠٠٧، أو تجربة السلطة عموما مع المقاومة في تسعينيات القرن الماضي، والضامن الوحيد لذلك هو قوة المقاومة ووعي الشعب.

إن نوايا الاحتلال تجاه غزة، لا تتعلق بغزة، بل تتعلق بالقضية الفلسطينية إجمالاً، والسعي الحثيث لتصفية القضية الفلسطينية ككل، وإزالة كافة العوائق والعقبات أمام بقاء يد العدو طليقة في تنفيذ مخططاتها التصفوية للوجود الفلسطيني، إنها معركة كل القضية الفلسطينية تدور على أرض غزة، وليست معركة جزئية في غزة.

إن المتضرر من ضعف غزة أو سقوطها لا سمح الله، لن تكون غزة أو من يقودها، بل كل القضية الفلسطينية بكل أركانها وثوابتها.

ستجد الضفة نفسها وحيدةً بلا سند ولا أظافر، ولن تكون غزة حاضرة معها بل فزاعة لها، وستُقدم الضفة من أجل تجنب مصير غزة كل التنازلات المتسترة بقناع الحكمة والمرونة، وسيعلن الكيان سيادته على الضفة أو على الأقل على أكثر من ٧٠٪ من مساحتها غير الخاضعة للسلطة، وستخضع لعملية تهجير قسري وطوعي ممنهج، وستكون غزة منطقة المنفى لمثيري الشغب والسائرين

على غير هوى الاحتلال في الضفة، وبالمناسبة لن تكون غزة منفى الثائرين فقط بل طيفا واسعا من أقربائهم –حتى المبالغين في المسالمة– لأن الجريمة الحقيقية ليست أن تكون مقاوماً بل أن تكون فلسطينياً.

ستتسارع إجراءات الاحتلال في تهويد القدس وتغيير هويتها، ولن نملك وسيلة ضغط واحدة لوقف الإجراءات الأحادية في الأقصى وتحويله تدريجا إلى حرم ابراهيمي ثاني، وسيؤكل فلسطينيو الداخل كما أكلت غزة من قبل، وستنتهي قضية اللاجئين إلى الأبد، أما الأسرى فستكون معاناتهم أشد من الوصف، وسيكون عجزنا كفلسطينيين أكبر من القهر، وعارنا أثقل من أن يحمله جيل واحد منا.

ولهذا فإن ما يحدث في غزة، وكيف ستنتهي الحرب، واليوم التالي لها، ليس شأنا غزاوياً خالصاً، وليست ذبيحة ينتظر البعض سقوطها ليأخذ نصيبه من فتات أحشائها التي يلقيها لهم الاحتلال، إنها معركة الفلسطينيين جميعاً، وينبغي أن نتوقف عن الصبيانية الحزبية أمام الخطر الداهم الذي ينتظر القضية ككل، بينما يظن البعض أن هذه اللحظة مناسبة لتصفية حساباته مع برنامج المقاومة، وكأن برنامجه سينجو إذا سقطت غزة أو أضعفت.

لو كان هناك ضمير وطني حقيقي، لتداعت كل القوى لإسناد غزة وتدعيم موقفها، بدلاً من لعب دور البديل المعتدل، ولتظافرت الجهود السياسية والدبلوماسية والإعلامية والشعبية لتدعيم صمود غزة مقاومة وشعباً، بدلا من المزاودة عليها واستهداف الروح المعنوية لشعبها، لأن بقاء غزة قوية وقادرة

على التأثير وإعادة بناء قوتها، هو مصلحة استراتيجية لكل الفلسطينيين إذا كانوا حقاً يملكون مشروعاً وطنياً تحررياً، ولا يقبلون العيش في حظيرة الاحتلال قانعين بما يلقي إليهم من امتيازات المرعى.

إذا كان البعض لا يستطيع اسناد غزة بفتح جبهة مقاومة مسلحة أو حتى شعبية، ولا يملك أي وزن لإسنادها مادياً وتخفيف معاناتها المعيشية، فعلى الأقل مطلوب اسنادها معنويا أو حتى الاكتفاء بفضيلة السكوت.

إن جزءً من اهداف قوة القتل الدموي المفرط التي يستخدمها الاحتلال في غزة، هو كي الوعي وتكفير الناس بقضيتهم، وتجريد المقاومة من حاضنتها الشعبية تحت وطأة الألم والمعاناة، ولقد وجه العدو جزءً من ترسانته الإعلامية وحتى العسكرية، لتحقيق الهدف المعنوي، وإسقاط المقاومة في نظر شعبها، والبعض للأسف يدعي الحكمة والحنكة بينما يتماشى حتى آخر الطريق مع مخططات العدو وأهدافه.

إن كل ما حاق بغزة من قتل وتدمير وتخريب، يفوق الخيال ويتفوق على الوصف، لا يمثل عبئاً استراتيجياً على القضية الفلسطينية، كما سيمثله خروج غزة من المعادلة الوطنية وفقدان القضية لأداة قوتها الفاعلة والمؤثرة والوحيدة.

إن رأس مالنا الوطني حاليا، هو صمود المقاومة الأسطوري بكل ما للكلمة من معنى، وقدرتها على البقاء، إن القوة الوحيدة التي نملكها هي تلك القوة التي تقاتل في الميدان، وهي أيضا في ميدانها وحيدة...!

سيناريوهات وقف العدوان

هناك ثلاث طرق لانتهاء المعركة ووصـــولنا إلى اليوم التالي وفتح صـــفحة استراتيجية جديدة من صفحات صراعنا الوجودي والمستمر مع الاحتلال.

الأولى: هي انكســار غزة واســتســلامها، وهو أمر لا نريده وكذلك لا نتوقعه، وكل الأثمان التي يصعب على الإنس والجن تخيلها لا يمكن أن تدفع غزة إلى هذا الطريق على الإطلاق، كما أن كل المؤشرات لا توحي بذلك، والفضل بعد الله لرجالات المقاومة الأشــاوس، الذين يســطرون معركة دفاع أســطوري في ظروف قاسية جداً، لم تشهدها قوة مقاومة عبر التاريخ المعاصر وحتى القديم، وفي ظل حصار كامل الإطباق من كل الجهات والجبهات.

الثانية: هي الوصــول إلى صــيغة اتفاق وســط، يمثل الحد الأدنى الذي يمكن للمقاومة القبول به، وســيكون هذا الاتفاق رغبة من المقاومة في كســر موجة الحرب العاتية وتخفيف حدتها، وتخفيف المعاناة الهائلة عن الشــعب، والتقاط الفرصــة لترميم عاجل للقوة، مما يعطي الشــعب والمقاومة فرصــة أكبر على الصمود والمواصلة حال تفجر الصراع مجدداً ولم يصمد الاتفاق تحت مطامع الاحتلال ومخاوفه.

ولا بد أن نفهم ونتجهز، أن هكذا اتفاق لو تم واستقر، فمعناه الوحيد أن الجولة القادمة لن تكون بعيدة، ولا ينبغي أن يرف لنا جفن أو يتردد لنا قرار إذا ما دعت الضـرورة الوطنية أن ندخل في حالة اشـتباك جديدة مع العدو، ولا يجوز اطلاقاً أن تحقق الحرب الحالية تشـوها وعيويا ينسـينا أننا كنا ولا زلنا مشـروع

تحرر لتغيير الواقع الاحتلالي بشكل جذري، وليس مشروع تحسيني لظروف العيش في ظل الاحتلال.

الثالثة: أن يواصل العدو عدوانه طمعاً في تثبيت إنجازاته وخوفاً من تبديدها، وأن تواصل المقاومة صمودها، وندخل في معركة استنزاف وعض أصابع عمادها قدرة المقاومة والشعب على الصمود والتحمل، حتى يصل العدو إلى لحظة لا يعود بعدها قادراً على الاستمرار في استخدام القوة المفرطة والقبضة الفولاذية، ويصل إلى اليقين أنه لن يستطيع تحقيق إنجاز هدفه المأمول في القضاء المبرم على المقاومة وقدراتها، ويتململ الداخل الصهيوني من التكلفة الاقتصادية والأمنية والسياسية والدبلوماسية للبقاء في غزة، وعندها سيكون وقف اطلاق النار احتياجاً صهيونياً، ويصبح العدو هو الذي في موقع تقديم التنازلات للخروج من مستنقع غزة، عندها ستنقلب المعادلة الوطنية، وتتحول هذه المعركة من تهديد وجودي للمقاومة إلى نصر استراتيجي للقضية.

ورغم ميلي استراتيجيا للدخول في حرب استنزاف طويلة مع العدو، وهذه لديها متطلبات وأسس يطول شرحها حاليا، لكن ليس لدي مشكلة في أي حل يخفف من معاناة الناس ويمنحهم شيئاً من الهدوء والأمن، طالما يمنح المقاومة فرصة لالتقاط أنفاسها.

وبغض النظر عن الطريقة التي ستنتهي بها الحرب، بانسحاب كامل أو تدريجي، فإننا لا بد أن نكون جاهزين لاستئناف القتال، وألا تخدعنا الضمانات الدولية، وأن نستغل كل ثانية هدوء في إعادة ترميم قوتنا والاستعداد لمعركة

قادمة تحســـباً لغدر متوقع جداً من العدو، فلا تتخلى المقاومة عن حذرها، ولا يضن الناس على المقاومة بما يساعدها على ترميم وتصليب الدفاعات وزيادة الكمائن.

الصبر الاستراتيجي

حتى اللحظة لم ينجح العدو في تحقيق هدفه الحقيقي من الحرب، المقاومة لم تنكسر وهو لم يسيطر، وتقريبا نفذت كل الأهداف الميدانية للعمليات الخاطفة، وهو لا يزال يراوح مكانه، كل ما يفعله ليس له معنى، يمكنه أن يدخل أي منطقة بالزخم الناري المهول صـــامداً أمام ضـــربات المقاومة حتى تتوقف، وعندما يغادرها تعود المقاومة تنبت من جديد، ليس أمامه إلا الضـــغط على الناس والصـــبر على التكلفة الأمنية والإجهاد العسـكري للقوات، على أمل أن يجني مزيدا من التنازلات.

لكن إلى متى يسـتطيع الصـبر؟، وإلى متى يسـتطيع البقاء في حالة حرب؟، مهما طال الزمن سيحتاج العدو إلى وقف حالة الحرب، سيحتاج جنوده للهدوء ومسـتوطنوه للعودة واقتصـاده للتعافي، ما تبقى له كي يحققه باسـتمرار الحرب أقل مما سيخسره إذا فوت مشاريع التطبيع والاندماج في المنطقة التي يعتبرها ضماناً استراتيجياً لإطالة عمر كيانه الغريب.

الأســرى يشــكلون عامل ضــغط، لكن قريبا عائلات الجنود، وعائلات قوات الاحتياط، والقيادات العســكرية المتهمة بجرائم الحرب، وصــورته في عمق

الوعي الغربي التي بدأت تنعكس معالمها، وغيرها من العوامل الضـــاغطة للتعجيل بوقف الحرب ولو بعد حين.

وحتى إذا لم يتوقف فإن قبضـــته لا بد أن ترتخي وقواته لا بد أن تتراخى، ويشـهد لذلك القدرة المتزايدة للمقاومة على إيقاع الخسـائر في قوات العدو أكثر من قدرتها بداية الحرب، رغم أن قوات العدو المزجة في الميدان أقل بكثير من تلك الأيام، وإذا تراخت قوات العدو زادت قدرتنا على اســـتنزافها، وزادت عليه تكاليف البقاء.

لقد كانت تكتيكات الحرب على غير توقع المقاومة ولا خبرتها ولا إعدادها، ومع الزمن اكتســـبت المقاومة ولا زالت، خبرات وتجارب تزيد من فعاليتها وتجعلها قادرة على التعايش مع أصـــعب وضـــع وُضِـــعت فيه أي مقاومة في التاريخ، وعندها ستكون مستقبل الأيام أفضل للمقاومة وأسوأ على المحتل، لأنه لا شيء سيأتي أصعب مما مضى.

لقد اســتفادت المقاومة من مخلفات ذخائر العدو الكثيرة جدا، وعوضـــت كثيرا مما كانت تجلبه عبر قنوات التهريب التي أغلقها الاحتلال، ومما نشـــاهده ويعلمه البعض، فإن ما أضافته المقاومة لقوتها من نسفيات وعبوات برميلية – وهو الســلاح الأهم والفاعل في حرب المدن – يبدو أكبر مما كانت تملكه قبل الحرب.

إن عقارب الســاعة تدور تدريجيا ولو بشـكل بطيء، لاسـتعادة المقاومة جزءً من عافيتها تحت الحرب، وستكون أكثر قدرة مع أي نسمة هدوء.

إن المطلوب أن نتحمل، وأن يكون زادنا من الصـــبر كبير، وألا نتعجل تقديم تنازلات، وأن نوطن أنفسـنا للاسـتمرار والمواصـلة، وأن نبادر ولا ننتظر وقف العدوان، وأن نؤسـس نظاما يتناسـب مع الواقع الحالي على أمد طويل نسـبياً، سـواء على صـعيد المقاومة أو على صـعيد إدارة الجبهة الداخلية، فإذا وقف العدوان فبها ونعم، وإذا لم يتوقف فإلى حيث ألقت.

إنني أعلم الحالة المعيشية الصعبة للسكان التي نعيش مثلهم تفاصيلها، وأفهم التلهف الفطري للهدوء والحصـــول على شـــعور بالأمن ولو ليوم واحد، اعرف المعاناة في تحصـــيل قوت اليوم وأدرك حجم ما يحتمله هذا الشـــعب الكبير العظيم وافتقاده لأبسط احتياجاته الإنسانية.

لكننا كحملة مشروع تحرر وطني، أكثر احتياجاً إلى عدم الانكسار، لا ينبغي أن تروضنا الآلام والتضحيات وتسلبنا الإرادة، إن الفرق بين الانسان والبهيمة أن تضحياته لا تدفعه للإذعان بل تمنعه من تضييعها بلا قيمة كأنها السراب.

أعلم أن الصـــبر المجتمعي يحتاج إلى الوعي الجمعي، وقبله يحتاج إلى المسؤولية الوطنية من خصوم المقاومة، لكن حتى لو لم يحصل ذلك، فليس أمام المقاومة إلا مواصلة الطريق، وللشعب أجر الصمود راغباً أو راغماً.

إننا لن ندرك كم كانت تضحياتنا ذات قيمة وتأثير، مثلما سندركها عندما يكون وقف النار احتياجاً للعدو مثلما هو مطلب للمقاومة.

وإن إمكانات المقاومة التي أجبرت العدو على الانسحاب في ٢٠٠٥، هي بعد أكثر من عام على هذه المطحنة الكبرى، لا تزال أكبر بكثير جداً مما كانت

تملكه يومها، مع فارق كبير أيضـا في خبرة المقاومة وتجربتها، والنصـر ليس للأقوى بل للأصبر.

الخطيئة الوطنية والفرصة التاريخية "مصارحة مؤلمة"

إنني لا أجد القضـية الفلسـطينية وغزة تحديداً في أزمة، إلا بقدر ما نصـنعه نحن الفلسطينيون في أنفسنا، وإنني أجد أن قدرتنا على تحقيق تفوق استراتيجي على العدو، أكبر مما يسـتطيع العدو تحقيقه علينا، لكننا كفلسـطينيون لا زلنا نقدم نموذجا غريب الأطوار، وانقسـاماً غير مبرر على الإطلاق، في ظل هجمة العدو الغاشـمة، التي يتضـح للجميع وحتى للعميان والسـذج والهبلان وأنصاف العقلاء على الكوكب وعلى ثلاثة أرباع المجرة؛ أنها لا تستهدف غزة فقط، بل تستهدف غزة أولاً...!

إننا طوال عام وأكثر، سـمحنا كشـعب أن تكون المعركة بين المقاومة والاحتلال، وساد خطاب شعبوي ساذج ومقيت، يوحي كأن الشعب طرف ثالث لا علاقة له بالموضـوع، أو أنه وقع ضـحية بين طرفين غريبين متنازعين، ينتظر النهاية بفارغ الصـبر، نهاية ماذا وعلى ماذا؟ الأمر ليس مهما، لأن حضرة الشعب طرف آخر خارج المعادلة تماما.

إننا طوال عمرنا، وفي كل المحطات الصـعبة من محطات الصـراع، نندب خذلان العرب، ونشكو تقصيرهم في اسنادنا والدفاع عنا، ونطلب ان يغادروا مربع الكلام إلى واقع الأفعال، وهذا يعني دخولهم في المواجهة وإلقاء جيوشهم وعواصـمهم ومدنهم في أتون الحرب من أجلنا كما فعل حزب الله في لبنان

وأنصار الله في اليمن، فهل يعقل أن نكون نحن أول من يخذل بعضنا بعضاً وأكثر المتأففين من دفع الثمن؟!، أم أننا نريد من العرب أن يقاتلوا نيابة عنا وليدفعوا هم الثمن؟!!، نريد منهم أن يتحملوا عواقب الدفاع عنا حتى لو خربت بلادهم، فهل سنصف دفاعهم عنا درباً من التهور أم صنفاً من الجنون؟!

لا شك أن العدو ساهم بكل قوته وجبروته وإمكاناته في كي الوعي الشعبي، وتعزيز هذا الخطاب المصلحي، ولعبت للأسف قوى فلسطينية أخرى دورا مهما في تخذيل الناس، كما عزز شيوع هذا الصوت، غياب الصوت الواعي المضاد، الواقع تحت الاستهداف المباشر، أو الصامت جبرا في كل السجالات العامة، لأن سفيها يمكن أن يلقي في وجهك مائة شبهة في عشر دقائق، بينما تتطلب كل شبهة ساعة من التوضيح إذا كان الحوار في حضرة العقلاء لا اللمم، فيلجأ الصوت الوطني للسكوت، بينما يظن الناس أن صوت الدهماء والبلهاء وسقط القوم هو السائد والمعبر عن النبض الحقيقي لعموم الناس.

إن هذا الخطاب الشعبوي الرديئ، يمثل خطيئة وطنية كبرى، تعطي الأمل للاحتلال، فيما يمارس ضغطا معنويا على المقاومة لتقديم تنازلات قد لا نستطيع تعويضها في سنين طويلة.

ولا أخفيكم أن جزءً من الخلل يتحمله الخطاب السياسي الباهت للمقاومة، والذي يُمَحوِر الصراع حول صفقة تبادل، بدلا من مَحوَرَتِهِ حول تحقيق حقوق شعبنا، وإنهاء المعاناة الواقعة على شعبنا وكسر الحصار بشكل نهائي، مما يقدم خطابا ملهما للناس، ومؤملا بما يتناسب مع معاناتهم.

إننا كشعب فلسطيني، لم ندفع في تاريخنا ثمناً باهظاً كما دفعناه اليوم، بل إننا بشكل عام لم يعد لدينا شيء لنخسره، وهذه في الحقيقة أكبر نقطة قوة يفترض أن نكون قد امتلكناها، وليس هناك ثمن مناسب لما دفعناه وعانيناه حتى الآن إلا الحصول على كافة حقوقنا كبشر.

إننا لا نطالب العدو بالانسحاب لما قبل السابع من اكتوبر، ولا عودة النازحين إلى الشمال، إننا نطالب بإنهاء كل مظاهر الاحتلال عن غزة على الأقل، نطالب بمنافذ برية وبحرية وجوية، وحرية في الحركة والتنقل، وحقنا في الاستفادة من ثرواتنا المائية، ومستعدون في سبيل تحقيق هذه الأهداف، الاستمرار في معركة استنزاف طويلة مع الاحتلال، مهما كان زمنها طويلاً وثمنها كبيراً، المهم ألا نتوقف حتى تحقيق أهدافنا وحقوقنا دون إنقاص.

إننا نستطيع لو توحدنا على موقف واحد، وأعفينا المقاومة من الضغط الدافع للتنازل، وحولنا ضغطنا الشعبي والسياسي على العدو، ووقفنا كفلسطينيين في جبهة واحدة ضد الاحتلال، نستطيع أن نعيد قلب المعادلة، وأن نعيد الصراع إلى جوهره الحقيقي، إن هذه إرادة الشعب وليست إرادة المقاومة، وإننا ينبغي كشعب أن نكون عامل الضغط الحقيقي على المقاومة أن لا تقدم تنازلات تمس مستقبلنا أو تضعف موقفنا الاستراتيجي تجاه العدو، لقد دفعنا ما يكفي من الأثمان وما بقي اقل بكثير مما مضى، وإن العدو يستطيع ربما أن يواجه المقاومة، لكن لا يستطيع مواجهة شعب كامل.

إنها فرصـــة تاريخية ألا نهدر كل هذه الاثمان المدفوعة، لنعود إلى مربع الاسـتجداء السـياسـي المجرب سـلفاً، والرجوع إلى ابتزاز العدو لنا في ملف الاعمار والمسـاعدات، إنها فرصـة تاريخية أن نقف شـعباً واحداً وموحداً، في وجه العدو لا في وجه أعدائه...!

إن العدو مهما طالت المعركة لا يستطيع الاستمرار، وعندما يتوقف، سيكون هو من يستجدينا لوقف إطلاق النار، وعندما يستجدينا، هو من عليه أن يقدم التنازلات.

فليتوقف التفاوض حول الأسرى، ولتعلن غزة منطقة تحت الاحتلال، ولنكن في معركة مفتوحة لطرد الاحتلال، فيما تكون قضـية الاسـرى مسـألة ثانوية يتم حلها بحل مشكلة الاحتلال، وكما طردناه سابقا، سنطرده لاحقاً.

إن ما نسـتطيع أن نحققه عبر خمس سـنوات من القتال، ربما لن نسـتطيع تحقيقه خلال ٢٠ سـنة من التفاوض، وإن كل تنازل نقدمه لوقف الحرب سـنحتاج سـنوات لتعويضـه بعد الحرب، ومواصـلة القتال الحالي أسـهل من استئنافه بعد توقف.

إن النفس الطويل، والقدرة على الصمود واستنزاف العدو إلى اللحظة التي يجد أن بقاؤه في غزة أكثر كلفة مما يطيق، هو السـبيل الوحيد لتحويل ما أراده العدو نصراً مطلقا لكيانه، إلى نقطة تحول استراتيجي لقضيتنا.

وإن الأمر في هذه النقطة مرهونة بوعي الشعب وإرادته، أما المقاومة فلم يخب رهاننا عليها يوماً ولن يخيب.

اليوم التالي للحرب

مهما طالت الحرب، لا بد ان تنتهي ويأتي ما شـاع اصـطلاحه باليوم التالي للحرب، وفي هذا اليوم لدينا ثلاث تحديات رئيسة

الأول: هو النظام السياسي الإداري في غزة، وأن يكون قادراً على تحقيق رغبة المجتمع الدولي في ألا يكون تابعاً لفصيل المقاومة السياسي من أجل تسهيل عملية الاعمار التي ستكون معركة ما بعد المعركة، وفي نفس الوقت لا يكون هذا النظام متماهياً مع رغبات الاحتلال عاملاً تحت توجهاته أو توجيهاته، ويجب في كل الأحوال أن لا يحقق هذا النظام للاحتلال بالقوة الناعمة ما لم يحققه الاحتلال ذاته بالقوة المفرطة، والضـمان الحقيقي لذلك هو خروج المقاومة من المعركة وهي لا زالت في عافية وقوة، وكذلك وعي الشـعب أو على الأقل وعي أنصـار المقاومة بهذه التحديات واسـتعدادهم لكبح النظام الجديد إذا تطلب الأمر، وللأسـف فإن العقبة الكبرى في هذه الحالة لن يكون الاحتلال بقدر ما سيكون أولئك الذين يطمحون في طرح انفسهم بديلاً معتدلاً ومنزوع الأظافر وحتى الحوافر، لكن عليهم أن لا يتأملوا كثيرا، فالعدو الذي سنطرده من الباب لن نسمح له أن يدخل متنكرا من الشباك.

الثاني: موقع المقاومة من الاعراب، وقدرتها على ترميم نفسـها وإعادة بناء قوتها، دون الاصـطدام بالاحتلال والأهم دون الاصـطدام بالنظام الجديد، ولا يجب أن تكون المقاومة في عجلة من أمرها بما يلفت الأنظار المعادية إلى خطورة خطواتها، لكن عليها أن تبدأ بترميم الدفاعات الصـلبة التي تعيق حرية

قوات العدو في التوغل، ثم تبدأ في ترميم قواعد الاشتباك بشكل تدريجي، وهذه لوحدها ستكون معركة طويلة وشاقة، وتتطلب الكثير جداً من الصبر والعناد.

إن أهم تحديات اليوم التالي للحرب، هو قدرتنا على امتلاك أوراق ضـــغط، تحول دون قدرة العدو على ابتزازنا في ملف الاعمار والمساعدات، وتمكننا من فرض بعض المطالب دون الدخول في حالة الحرب، وليس شـــرطاً أن تكون أوراقنا عسكرية، لكن يجب ألا تكون يدنا مرتعشة.

الثالث: ترميم الحاضنة الشعبية، وتخفيف معاناتها، وإزالة آثار الحرب المعنوية والنفسية التي شنها الاحتلال على فكرة المقاومة في الوعي الجمعي، وهذه بحد ذاتها معركة لا تقل عن معركة ترميم قواعد الاشتباك، لا من حيث الأهمية ولا من حيث التكلفة، وفي ظني أن شـعب غزة لن ينسـى من خذلوه بشـكل بالغ الوقاحة، لكن الألم والمعاناة التي عايشـــها الناس تفوق قدرة البشـــر على الاحتمال، ولهذا يجب أن تكون يد المقاومة حانية وســـخية على الناس، وهنا يجب أن يدرك أنصـار المقاومة في العالم، أن حاجة المقاومة للدعم والمساندة على الصـعيد الإغاثي والإنسـاني بعد الحرب، قد تكون أكبر من حاجتها أثناء الحرب، ولا تقل أثرا عن دعم السلاح أو حتى تقديم الدماء.

خاتمة

إنني لا أنظر إلى حرب السابع من أكتوبر كحرب هجومية، بل هي ضربة استباقية لحرب كان يجهز العدو لها وينتظر الظرف المناسب للانطلاق فيها، ولقد كانت المعركة فخرا أسطوريا للمقاتل الفلسطيني، الذي نجح في تنفيذ واحدة من أبرع وأعقد خطط الهجوم عبر التاريخ القديم والمعاصر، وصمد في وجه أشرس وأعتى معركة شهدتها المنطقة منذ عدة قرون.

وإن أي تقييم لنتائج حرب السابع من أكتوبر، لا ينبغي أن يقاس بمقارنة الوضع الحالي بالوضع السابق، بل ينبغي أن يقاس بأهداف العدو الاستراتيجية التي سعى لتحقيقها، وبما استطاع أن يحقق وما فشل في تحقيقه.

إننا يجب ألا ننسى أو نغفل أننا مشروع تحرر وطني، وأن تحرير فلسطين لن يتم بالضربة القاضية ولا بمنحنى تصاعدي من الإنجازات، بل هي جولات متفاوتة ومتقلبة في القوة وفي الإنجاز، إنه لا نصر إلا برحيل الاحتلال، وكل جولات ما قبل التحرير لا يمكن تقييمها بنصر أو هزيمة، وإنما يتم تقييمها مهما كانت نتيجتها لصالحنا أو لصالح العدو؛ أن العدو لم ينتصر لأننا لم نُهزم، وطالما لم نُهزم فالعدو لم ينجز إلا السراب...!

إن خسارتنا كقضية وطنية لو نجح الاحتلال لا قدر الله في خطته بتحييد غزة نهائيا وتفكيك مقاومتها، أكبر بكثير من كل الخسائر المادية والبشرية التي قدمناها على جسامتها وقدرها، ولهذا فإن أي صورة لنهاية المعركة، يجب أن يكون اليوم التالي لها يسمح للمقاومة بإعادة بناء نفسها وترميم قوتها.

إننا قادرون على تحويل ما أراده العدو نصـــرا مطلقا لكيانه إلى نقطة تحول استراتيجي لقضيتنا، شريطة أن نتحلى جميعا بالمسؤولية الوطنية، ونصطف جميعا خلف مقاومة المحتل، وهذا يتطلب نفسا طويلا في الصبر والصمود والقدرة على مواصلة التصدي للعدو واستنزافه، وصولاً إلى اللحظة التي ييأس فيها من البقاء في غزة ويجد نفسه مرغما تحت ثقل التكلفة إلى الانسحاب.

إن دولة العدو المزهوة بما تعده إنجازات استراتيجية على عدة جبهات إقليمية، لا تزال محاطة بالأعداء الأقوياء القادرين إلى استعادة عافيتهم، وستبقى في حالة خوف وجودي من مهددات بقائها، بكونها لا زالت كيانا غريبا في المنطقة، وإن أي تغيير في أنظمة الطوق، لا سيما مصر أو الأردن سيبخر كل هذا المنجزات كأنها سراب.

وكجرد حساب إجمالي للمعركة في غزة، فإن الحرب التي كان يمكن لمثيلاتها أن تسقط دولا في أيام قلائل، قد ألحقت ضررا ليس هينا في قدرات المقاومة ومقدراتها، لكنها لم تستطع تحقيق الهدف الاستراتيجي بإخراج غزة من حسابات التهديد التكتيكي أو الاستراتيجي.

وقناعتي المستندة إلى تحليل الأمور والمعرفة ببعض خباياها، أن المقاومة في غزة في أســـوء التقديرات، وفي نهاية هذه المعركة التي اســـتخدم فيها العدو أقصى ما لديه من طاقة وقوة، ستكون أقوى مما كانت عليه عند انتهاء معركة ٢٠١٤، مع فارق كبير في الخبرة، وستكون قادرة على استعادة عافيتها بشكل أسرع.

عندما تنتهي الحرب، ستنشغل غزة بتضميد جراحها وترميم قوتها، وسينشغل العدو في عاصفة الخلافات الداخلية التي ستعمق جراحه وتوهن نسيجه، وكما كان هجوم السابع من أكتوبر مذهلا للجميع، سيكون تعافي المقاومة مذهلا ومفاجئا، وليست تلك أمنيات الحالمين، بل يقين العاملين.

والحمد لله رب العالمين

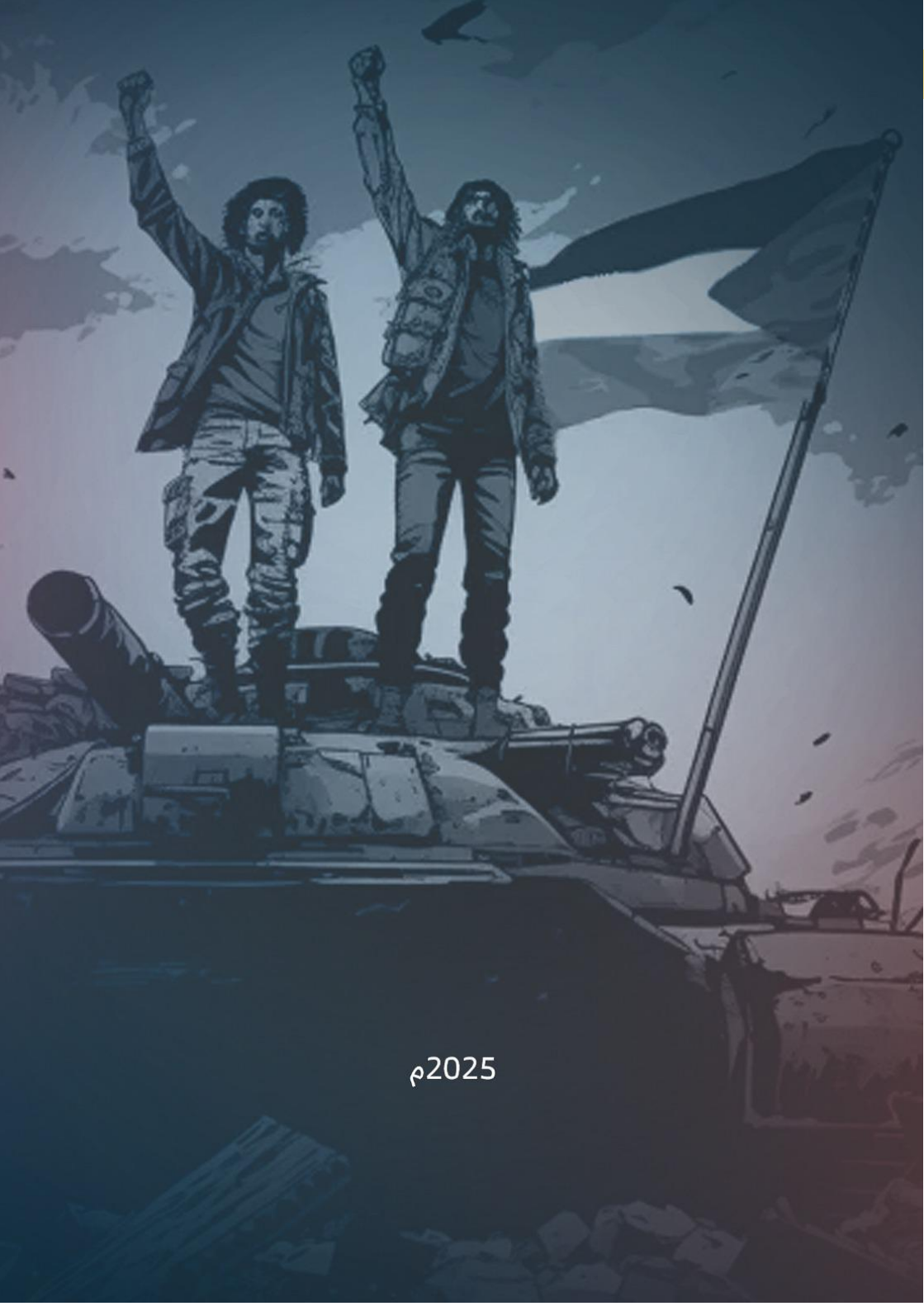

2025م